روايات مصرية للجيب

11

سلسلة الأعداد الخاصة

رجل المستحيل

عملية عنق الزجاجة

د. نبيل فاروق



رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- ذكريات حربية..

ساد هدوء تام الطابق الثالث، من مبنى الأمن القومى، داخل نطاق المخابرات العامة المصرية، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، على الرغم من أن النشاط المعتاد لم يتوقَّف لحظة واحدة، خلف الأبواب المغلقة، وفى حجرات وأقسام الاستماع، والبث الاعتراضى، والقسم المسئول عن شبكات الإنترنت السرية، الخاصة باتصالات الجهاز المشفَّرة..

وفى إرهاق واضح، فرك مدير المخابرات عينيه، وتثاءب فى قوة، وهو يقول لنائبه الأوَّل، مشيرًا بيده:

- يا له من عمل! المشكلات لا تتوقَّف لحظة واحدة، والمواقف الحرجة، التى تستلزم تدخلاً سريعًا، تحتاج إلى ما يزيد على ساعات اليوم، لمراجعتها، ومناقشتها، وإيجاد الحلول اللازمة لها فحسب.

ابتسم نائبه، وهو يغمغم فى خفوت:

- هذا أمر طبيعى يا سيِّدى، فعيوننا منتشرة فى كل مكان فى العالم، ولا أحد يرغب فى أن نحقِّق أيَّة انتصارات، على أية محاور، لذا فالصراع مستمر طوال الوقت، والحرب الخفيَّة لا تتوقف لحظة واحدة.

تنهَّد المدير ، ومال إلى الأمام ، قائلاً :

ـ العجيب أن المواطن العادى لا يدرك شيئًا عما يدور ، فى كل بقعة من العالم ، فى كل لحظة ، بل ولا يمكنه أن يتصوَّر لحظة واحدة ، أنه لكى يجلس فى منزله آمنًا ، هادئًا ، مستقرًا ، لا بد أن يقاتل رجالاً كالوحوش ، يجازفون بأرواحهم نفسها طوال الوقت ، ويحيون حياة يستنكر حتى إمكانية وجودها .

هزَّ نائبه كتفيه ، وقال :

ـ هذه سنة الحياة .

أشار المدير بيده ، وهو يتراجع مرة أخرى فى مقعده ، قائلاً :

ـ وطبيعة عملنا .

غمغم نائبه :

ـ بالتأكيد .

تنهَّد المدير مرة أخرى ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، قائلاً ، وهو يلقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحًا :

ـ ولكن حتى أمثالنا يحتاجون إلى النوم والراحة .. قل لى : هل ستعود إلى منزلك مثلى ؟!

نهض النائب فى احترام ، وأجاب :

ـ الواقع أننى أتمنى هذا ، ولكن هناك رسالة شفرية انتظرها ، من (جواتيمالا) ، فى خلال ساعة .

ربَت المدير على كتفه ، قائلاً :

ـ فليكن .. وفقك اللَّه (سبحانه وتعالى) .

ثم ابتسم ، مضيفًا ، وهو يغادر المكتب :

ـ وأعانك .

كان يشعر بإرهاق حقيقى ، بعدما يقرب من عشرين ساعة من العمل المتواصل ، وخمس اجتماعات بفرق عمل ، ومراجعة ما يزيد على ثلاثمائة تقرير عاجل ، من مختلف أنحاء العالم ، لذا فقد تثاءب مرة أخرى ، وهو يشير إلى حارسه بألا يتبعه ، ويقطع الممر الطويل أمامه فى خطوات سريعة ، و ...

وفجأة ، تحفَّزت كل ذرة فى كيانه ..

شىء ما ، لم يدر كنهه بالضبط ، وسط الهدوء التام ، جعل حواسه كلها تنتبه ، وأطلق فى أعمق أعماقه صفارة إنذار صامتة ، يعرفها ويدركها جيدًا كل رجل مخابرات ، فى العالم أجمع ..

وبحركة حادة ، استدار بكيانه كله ، نحو حجرة الأرشيف الخاص .

الحجرة التى تحوى أهم واخطر وأدق أسرار العمليات ، التى قام بها رجال المخابرات المصرية ، منذ إنشاء الجهاز ، عام ١٩٥٤م

وبخطوة واسعة أشبه بوثبة فهد رشيق ، اتجه نحو الحجرة ، وفتح بابها ، وهو يهتف فى صرامة :

ـ من هنا ؟!

قبل حتى أن يكتمل هتافه ، كان بصره قد وقع على ذلك الجسم الضخم المكتظ ، الذى يكاد يملأ فراغ الحجرة ، ورأى صاحبه ، الذى قفز فزعًا ، وهو يهتف :

ـ سيادة المدير ؟!

ارتفع حاجبا المدير فى دهشة ، وهو يقول :

ـ (قدرى) ؟! ماذا تفعل هنا ، فى هذه الساعة ؟!

التقط (قدرى) نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على انفعاله ، وهو يلوِّح بذراعيه على نحو مضحك ، قائلاً :

ـ لقد .. لقد أرهقنى العمل المتواصل ، وأردت أن .. أن ..

قاطعه المدير فى اهتمام :

ـ هل تبحث عما تقرؤه ؟!

ازدرد (قدرى) لعابه فى توتر بالغ ، وهو يجيب :

ـ إننى أحد المصرَّح لهم بدخول هذا القسم ، والاطلاع على ملفاته .. أليس كذلك ؟!

رمقه المدير بنظرة صامتة صارمة طويلة ، قبل أن يجيب :

ـ هذا صحيح يا (قدرى) ، ولولا هذا لما استجاب الرتاج الإليكترونى لبطاقتك الممغنطة ، ولكن هذا لا يعنى أن قسم الأرشيف الخاص قد تحوَّل إلى مكتبة عامة ، يمكنك استعارة ما تشاء منها ، فى أى وقت من الليل أو النهار .. المفترض أن تتعامل معها كمستندات أو مراجع هامة ، تفيدك فى عملك فحسب .

ارتبك (قدرى) أكثر ، وهو يقول :

ـ هذا ما أفعله دائمًا ، ولكن الواقع أن .. أن ..

شعر المدير بشىء من الإشفاق عليه ، وهو يرتجف على هذا النحو ، بجسده الضخم ، فتجاوز الموقف فى سرعة ، متسائلاً :

ـ (ن ـ ١) .. أليس كذلك ؟!

ازدرد (قدرى) لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب :

ـ بلى يا سيِّدى ، ولكن يبدو أننى قد قرأت كل ملفاته القديمة ، التى لم أعاصر أحداثها بنفسى ، ولم يعد هناك جديد .

أدار المدير عينيه فى الملفات العديدة ، قبـل أن يبتسـم ، مغمغمًا :

- هل تعتقد هذا ؟!

أجابه (قدرى) فى يأس :

- لقد راجعت ملفاته كلها .

جذب المدير مقعدًا ، وجلس فى هدوء ، وهو يقول بنفس الابتسامة :

- ربما هناك عمليات ، لم تتضمَّنها هذه الملفات .

هتف (قدرى) فى لهفة :

- حقًا ؟!

أشار المدير إلى مقعد كبير ، وهو يقول :

- اجلس .

أطاعه (قدرى) فى آلية ، وهو يتساءل بلهفة أكبر :

- هل توجد بالفعل عمليات للعميد (أدهم) ، لم أطالعها قط ؟!

أجابه المدير بابتسامة غامضة :

- بالتأكيد .

هتف (قدرى) ، بكل لهفة الدنيا :

- مثل ماذا ؟!

صمت المدير طويلاً هذه المرة ، حتى اشتعلت لهفة (قدرى) إلى ذروتها ، قبل أن يقول المدير :

- ألم تسأل نفسك قط ، لماذا تربطنى بـ (ن - ١) دومًا علاقة خاصة جدًا ، تختلف عن علاقتى بكل زملائه ، من ضباط المخابرات العامة ؟!

هزَّ (قدرى) كتفيه المكتظين ، قائلاً :

- هذا أمر طبيعى ، فـ (أدهم) ليس ضابط مخابرات تقليديًا .. إنه شخص متميِّز للغاية ، و ..

بتر عبارته ، مع ابتسامة المدير الغامضة ، التى اتسعت أكثر وأكثر ، مما جعله يضيف فى حيرة حذرة :

- أليس كذلك ؟!

أجابه المدير بنفس الابتسامة :

- بلى .

ثم استدرك فى سرعة :

- ولكن هذا ليس السبب الفعلى .

كاد (قدرى) يفقد نصف وزنه دفعة واحدة ، من شدّة لهفته وانفعاله ، وهو يسأل بحلق جاف :

ـ ما هو إذن ؟!

مال المدير نحوه ، وهو يقول بلهجة خاصة :

ـ الواقع أننى أعرف (ن ـ ١) ، قبل أى ضابط هنا .

ثم عاد يعتدل فى مجلسه ، متابعًا فى حزم :

ـ لقد كنت قائد كتيبة الصاعقة ، التى كان هو أحد ضباطها ، عندما اشتعلت حرب السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣م

هتف (قدرى) بدهشة عارمة :

ـ حقًّا ؟!

لم يبد أن المدير قد سمعه ، وهو يواصل حديثه ، وقد شردت عيناه ، وكأنما يستعيد ذكرى تلك الأيام :

ـ كان أيامها أيضًا ضابطًا متميّزًا للغاية ، لا مثيل له بين أقرانه .. يمتلك قلبًا كالأسود ، ونبلاً كالجياد ، وجموحًا كالنسور ..

باختصار .. كان أفضل ضابط صاعقة ، على طول الجبهة .

ازدرد (قدرى) لعابه فى صعوبة ، من شدّة الانفعال ، وهو يشير بيده إشارة غير ذات معنى ، قائلاً :

ـ لقد قرأت بالفعل ملف العملية ، التى قام بها ، قبيل حرب أكتوبر مباشرة ..

هزّ المدير رأسه ، وهو يستعيد ابتسامته ، قائلاً :

ـ هناك عملية أخرى ، لم تقرأ عنها شيئًا حتمًا ، بدأت قبيل اشتعال الحرب ببضع ساعات ، وامتدَّت إلى يومها الثانى .

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ فى قلب (سيناء) .

لهث (قدرى) فى انفعال ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى .

نهض المدير من مقعده ، وتلاشى إرهاقه ورغبته فى النعاس ، وهو يتحرّك فى الحجرة بنشاط عجيب ، قائلاً :

ـ فى تلك الأيام ، وكجزء من خطة الحرب ، كنا نعلم أن الإسرائيليين لن يضيعوا لحظة واحدة ، مع الضربة الجوية الأولى ، لإنقاذ وحماية خط (بارليف) ، وإرسال الإمدادات البشريةَ والآليةَ والعسكريةَ إليه ، نظرًا لإدراكهم أن انهياره يعنى أننا قد انتصرنا بالفعل ، أيًّا كانت النتائج فيما بعد ، فلقد صنعوا منه أسطورة ، تضاف إلى محاولاتهم السخيفة ؛ لإقناع العالم كله بأنهم جيش لا يُقهر أبدًا .. لذا فمن أولويات استراتيجية القتال ، أن نمنع

وصول تلك الإمدادات إلى خط (بارليف) ، بأى ثمن كان ، حتى ينهار تماماً ، وينتقل من قبضتهم إلى قبضتنا ، ويصبح نقطة انطلاق قوية ، إلى (سيناء) المحتلة ـ آنذاك ـ وركيزة للحرب النفسية ، التى خططنا لتدمير الروح المعنوية للعدو بها تماماً .

وصمت لحظة ، التقط خلالها نفساً عميقاً ، قبل أن يتابع :

ـ ولأن (سيناء) ذات طبيعة صحراوية جبلية ، كنا نعلم أن الوسيلة الوحيدة ، لمرور الإمدادات الإسرائيلية ، من القيادة فى الشرق ، إلى خط (بارليف) فى الغرب ، هى عبر ممراتها الجبلية(*)، وأن السيطرة على تلك الممرات ، تعنى السيطرة التامة على الإمداد والتموين ، وعلى حركة القوات فى الاتجاهين .. أو بمعنى أدق .. السيطرة الكاملة على خط سير القتال كله .

وصمت لحظة أخرى ، شرد خلالها بصره أكثر ، وتضاعفت بعدها حيويته ، وهو يكمل :

ـ ولكن العدو كان يسيطر على تلك الممرات بالفعل ، ويدرك أهميتها وخطورتها ، مما يعنى أن يبذل أقصى ما لديه من مال

(★) حقيقة ، وبالذات فى تلك الفترة ، التى انعدمت فيها وسائل الاتصال السهلة أو كادت ، بحيث صار من غير الممكن نقل أية معدات ثقيلة ، مثل الدبابات والعربات المدرعة ، وغيرها ، إلا من خلال منطقة الممرات ، التى كان أشهرها ممر (متلا) ، ويليه ممر (الجدى) .

وعتاد ورجال لحمايتها ، واستمرار سيطرته عليها ، ويعنى أيضاً أننا سنخسر تفوقنا القتالى والعسكرى خلال يومين فحسب ، من بدء القتال ، مما سيؤدى إلى انقلاب الموازين ، وخسارتنا لعدد مخيف من الرجال والأسلحة ، قد يفوق ما خسرناه فى نكسة يونيو ١٩٦٧م

والتقط نفساً عميقاً طويلاً ، وتألقت عيناه بشدة ، مع استطرادته :

ـ وهنا جاء دور أسود (مصر) .. رجال فرق الصاعقة .

هتف (قدرى) ، وقد شمله حماس مباغت :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

تابع المدير :

ـ كانت عملية بالغة الأهمية والخطورة .. أطلقنا عليها اسم (عنق الزجاجة) ، إشارة إلى الممرات ، وصعوبة اجتيازها والسيطرة عليها .

وهزّ رأسه ، وعيناه تشردان أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ عملية تألّق فيها رجال الصاعقة المصريون ، كما لم يحدث من قبل ..

وأزهقت خلالها أرواح أفضل الرجال والشباب ، من خيرة شهدائنا ، وأريقت معها أنهار من الدماء العطرة الزكية ، وسجّل التاريخ مع لحظاتها أعظم وأقوى البطولات والتضحيات ، التى لم تعرف الحروب مثيلاً لها قط .

وصمت لحظة ، قبل أن يدير عينيه إلى (قدرى) ، قائلاً :

ـ ولكن ما فعله (أدهم) آنذاك ، كان مذهلاً بكل المقاييس .

سأله (قدرى) ، بكل لهفة الدنيا :

ـ وما الذى فعله ؟!

التقط المدير نفسًا آخر عميقًا للغاية ، وتمتم :

ـ سأخبرك ما الذى فعله ؟!

وكاد (قدرى) يقفز من مقعده بحق ، مع لحظة الصمت ، التى أعقبت عبارة المدير الأخيرة هذه ..

كاد يصرخ مطالبًا بالقصة كلها ، وكل ذرة فى كيانه ترتجف فى قوة ..

وعنف ..

ولهفة ..

ولم يطل المدير انفعاله ..

لقد شرد ببصره بضع لحظات فحسب ، ليسترجع تلك الذكريات البعيدة ، قبل أن يعود إلى مقعده ، ويجلس عليه بمنتهى النشاط ، و ...

ويروى القصة ..

قصة العملية ..

عملية عنق الزجاجة ..

* * *

٢ ـ الأسود ..

ارتفع أزيز الطائرة الحربية المصرية ، وهى تحلّق على ارتفاع شاهق ، فوق صحراء (سيناء) ، فى الساعة الأخيرة من الخامس من أكتوبر ١٩٧٣م ، وقائدها الخبير يقودها فى مسار شديد التعقيد ، ببراعة مدهشة ، ساعدته على تفادى شبكات الرادار الإسرائيلية ، المنتشرة فى المنطقة ، منذ استقرّ فيها الجيش الإسرائيلى ، إثر نكسة يونيو ١٩٦٧م ..

وبداخل الطائرة ، جلس أسود الصاعقة المصريون فى صمت تام ، بكامل تسليحهم ، وعدتهم وذخيرتهم ، وكل منهم يراجع فى ذهنه كل التفاصيل ، التى يحفظونها عن ظهر قلب ، حول مهمتهم هذه ..

وباستثناء قادة الجيش وأفرعه ، كان هؤلاء الرجال وحدهم يدركون أن ساعة الصفر ، التى طال انتظارهم لها ، قد اقتربت وحانت أخيرًا ، وصار عليهم أن يواجهوا العدو مباشرة ، كما حلموا وتمنوا طويلاً ..

والعجيب أن أحدًا لم يخبرهم بهذا صراحة قط ..

فهى ليست أوّل مهمة لهم ، ضد العدو الإسرائيلى ..

لقد اشتبكوا معه أكثر من مرة ، خلال حرب الاستنزاف ، على رمال (سيناء) ..

ولكن هذه المرة حتمًا تختلف ..

ففى كل اشتباكات حروب الاستنزاف ، كانت لديهم خطة للعودة ..

عبور للقناة قبل الفجر ..

أو هليوكوبتر تلتقطهم ، على ارتفاع منخفض ، من قلب المعركة .

أما فى هذه المرة ، فلم يتحدَّث أحد عن العودة ..

كل ما طلبه منهم القادة ، هو أن يمنعوا مرور الإمدادات الإسرائيلية عبر الممر ، من الشرق إلى الغرب ..

وبأى ثمن ..

وبذل الجهد ، والروح إن اقتضى الأمر ، للسيطرة على الممرات ، لثلاثة أيام على الأقل ..

ولم يكن الأمر بحاجة إلى كثير من الذكاء ، ليدرك الرجال ما عليهم فعله .

وماذا ينتظرهم هناك ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يعترض أحدهم ، أو ينبس بحرف واحد ..

ولم يتراجعوا ..

أو يتردَّدوا ..

لقد قبلوا المهمة ، واستقلوا الطائرة إلى جحيم القتال ، وهم يعلمون أنها ــ على الأرجح ــ مهمة فى اتجاه واحد ..

بلا عودة ..

ولم يفت هذا فى عضدهم لحظة واحدة ..

لقد ظلوا كما كانوا ..

أسودًا ..

ومن بين هؤلاء الأسود ، كان الملازم أوَّل ــ حينذاك ــ (أدهم صبرى) ..

لم يكن ــ بحكم رتبته ــ قائدًا للمجموعة ، وإنما كان واحدًا من ثلاثة ضباط ، أنيط بهم قيادة تلك الفرقة ، التى سيكون عليها احتلال ممر (متلا) ، والسيطرة عليه تمامًا ، من الثانية إلا الربع ، من ظهر السادس ، وحتى منتصف السابع من أكتوبر ..

بأى ثمن ..

نفس المهمـة ، التى ستقوم بها فرقتان أخريان ، بالنسبة للممرين الباقيين ..

ولقد بدا مختلفًا تمامًا عن الآخرين ..

ليس بقامتـه الممشـوقة ، وبنيتـه القوية ووسامته الملحوظة فحسب ، ولكن بذلك الهدوء الشديد ، الذى جعله يبدو أشبه برجل فى طريقه إلى نزهـة طريفـة ، وليس كمقاتل يهم بخوض أعنف معركة ، فى حياته كلها ..

ولكن ذلك الهدوء كان مجرَّد إطار خارجى فحسب ..

ففى أعماقه كان هناك نهر متلاطم الأمواج ، وبركـان ثـائر ، يقذف الحمم بلا هوادة ، لتنساب عبر عروقه ، وتشتعل فى كل خلية فى جسده ..

لقد كان يعلم أنها اللحظات الحاسمة ..

السـاعات الأخيرة مـن الاحتـلال الإسـرائيلى البغيض ، الـذى يؤلم مشاعره ويجرح كرامته ، منذ ست سنوات كاملة ..

وكان يشعر بلهفة شديدة للاشتباك ..

ولخوض هذه المعركة ..

بكل ذرة فى كيانه ..

« استعد .. »

لم يكد النداء ينطلق ، من بين شفتى ضابط القفز ، حتى هبَّ الأسـود بحركة واحـدة ، واصطفوا عند باب الطائرة ، وعيونهم معلَّقة بالمصباح الأحمر فى السقف ، والضابط يقول :

ـ فتـح المظـلات عند ألـف وسبعين ، حتى لا ترصدكم عيون الإسرائيليين .. اتخـذوا مواقعكم فـور الهبـوط ، ولا تتحرَّكـوا أو تشتبكوا مع العدو ، حتى الساعة (س) ، مهما كانت الأسباب .

استمعوا إليـه فى اهتمـام صامت ، وعيونهم مازالت معلَّقة بالمصباح الأحمر ، و ...

« اقفز .. » .

انطلق الهتاف ، فى نفس اللحظة التـى انطفأ فيهـا المصبـاح الأحمر ، وأضىء المصباح الأخضر فى سقف الطائرة ..

ودون لحظة واحدة من التردُّد ، قفز الرجال ..

وفى سماء (سيناء) ..

وفى قلب الليل ، هبط الأسود ..

خمسون بطلاً مصريًّا ، سبحوا فى سماء أرضهم المحتلة ، وكل منهم يستخدم كل ما تعلَّمه وخبره ، ليحدِّد مساره وهدفه ، و ...

وبمنتهى الاهتمام ، حاول (أدهم) أن يخترق الظلمة ببصره ، ليطمئن إلى أن كل الرجال يهبطون بأمان ..



وبسرعة ، جذب حبال المظلة ، وطواها ، ثم دفعها بين صخرتين كبيرتين ، وهو يخلع حقيبتها ..

وعلى الرغم من الضوء الخافت ، والسقوط بسرعة الجاذبية الأرضية ، رآهم يجذبون حبال مظلاتهم ، واحدًا بعد الآخر ..

حتى المقدَّم (راشد) ، والنقيب (مدحت) ..

وبعد أن اطمأن إلى أن كل شىء على ما يرام ، جذب حبل مظلته ، وراح يجذب حبالها فى مهارة وبراعة ، حتى لمح قمة الجبل ، فضمَّ ركبتيه إلى صدره ، وترك جسده يهبط فى نعومة مدهشة ، لا ينافسه فيها أحد ..

وبسرعة ، جذب حبال المظلة ، وطواها ، ثم دفعها بين صخرتين كبيرتين ، وهو يخلع حقيبتها ، ثم يحمل مدفعه الآلى ، ويتحرَّك فى خفة .

كان يعلم كأقرانه أن الإسرائيليين لن يتركوا السطح خاليًا تمامًا ، فى مكان يدركون مدى أهميته وخطورته ..

ولهذا اختارت القيادة تلك البقعة النائية البعيدة ..

وذلك الموعد الليلى بالتحديد ، حيث يتم تبادل الحراسة ، وتغيير النوبتجيات ، مما يتيح عملية هبوط آمنة بقدر الإمكان ..

ولكن احتمالات الخطر مازالت قائمة ..

الدورية الإسرائيلية الطائرة ستقوم بتمشيط الجبل ، خلال سبع عشرة دقيقة فحسب ..

وينبغى أن يختفى الجميع عندئذ ..

بمنتهى الإحكام ..

وضاعفَ (أدهم) من سرعته ، وهو يثب عبر الصخور ، حتى بلغ نقطة اللقاء ، وما إن لمحه المقدَّم (راشد) ، قائد الفريق ، حتى أشار بيده ، هاتفًا بصوت خافت :

- أسرع أيها الملازم .

كان الرجال يتجمعون من كل صوب ، فى تلك النقطة ، التى رأت القيادة أنها أفضل بقعة لمراجعة الموقف ، وتأكيد نجاح الهبوط .

وطبقًا للتعليمات ، لم يكن من المسموح إجراء أية اتصالات لاسلكية ، قبل بدء الاشتباك ، خشية أن يعترضها العدو ، على نحو أو آخر ، فتضيع المفاجأة تمامًا ..

وبسرعة ، راح المقدَّم (راشد) يراجع موقف الرجال ..

كل منهم كان يدلى باسمه ، ورقمه ..

والوقت يمضى فى سرعة ..

الدورية الطائرة ستظهر بعد تسع دقائق فحسب ..

وفجأة ، هتف أحد الرجال :

- (منير) مفقود .

توتر الموقف بشدَة ، وتساءل النقيب (مدحت) :

- هل رآه أحدكم يقفز من الطائرة ؟!

أجابه أحدهم فى سرعة :

- نعم .. كان يهبط إلى جوارى مباشرة .

تساءل المقدم (راشد) فى قلق :

- أين هو إذن ؟!

تلفَّت (أدهم) حوله ، وهو يغمغم فى صرامة :

- أخشى أن ..

ثم بتر عبارته ، وهو يلتقط منظارًا مقرّبًا خاصًا ، مجهَّزًا للرؤية الليلية ، ثم يفحص به المنطقة كلها .

وكان الوقت يمضى بسرعة مخيفة ..

وموعد الدورية الطائرة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم فجأة ، وقع بصره عليه ..

كان ملقى فى زاوية بعيدة والهواء يتلاعب بمظلته ، على نحو يوحى بأنه قد فقد وعيه إثر السقوط ، أو ...

أو لقى حتفه .

وفى نفس اللحظة ، التى وقع فيها بصر (أدهم) عليه ، لاح أزيز هليوكوبتر الدورية الطائرة من بعيد .

وانعقد حاجبا المقدَّم (راشد) ، وهو يغمغم :

ـ ربَّاه ! مستحيل أن ينكشف الأمر ، بعد كل هذا .

ولكن الملازم (أدهم) هتف ، وهو يلقى إليه بمنظار الرؤية الليلية ، ويثب فى خفة بين الصخور :

ـ اختبئوا .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة ، والنقيب (مدحت) يهتف :

ـ الدورية الطائرة بدأت أيها الملازم ، والوقت لن ..

ولكن المقدَّم (راشد) قاطعه فى حزم :

ـ افعل ما يقول أيها النقيب ، فإما أن نختفى عن أعين الدورية الطائرة الآن ، أو يتم إجهاض العملية كلها قبل الأوان .

قال النقيب (مدحت) فى توتر :

ـ ولكن الوقت لن يكفيه لـ ...

دفعه المقدَّم (راشد) على صخرة كبيرة ، وهو يشير إلى باقى الرجال بالاختباء ، قائلاً فى صرامة :

ـ فليقم كل منا بعمله .

ثم انعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يضيف :

ـ ولنترك الباقى للّه (سبحانه وتعالى) ، هو نعم المولى ونعم النصير ..

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الملازم أوّل (أدهم صبرى) يعدو ويثب بين صخور الجبل ، وأزيز الهليوكوبتر الإسرائيلية من خلفه يقترب أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

و (منير) كان يرقد عند الحافة ..

ومظلته تجذبه ، بفعل الرياح ، نحو الممر ..

والمسافة بين (أدهم) وبينه تبدو كأنها بلا نهاية .

لذا ، فقد ضاعف (أدهم) من سرعته ، حتى لقد بدا وكأنما قد تحوّل كيانه كله إلى آلة عدو ، تجتاز كل ما أمامها من عقبات ..

مهما كان الثمن ..

وبوثبة أخيرة ، بلغ موضع جندى الصاعقة ..

لم يكن هناك وقت للتأكُّد مما أصابه ، لذا فقد قفزت أصابع (أدهم) ، تقبض على حبلْ المظلة ، وجذبها إليه فى سرعة وقوة ، و ...

ولكن فجـأة ، وقبل أن يبدأ فى طيهـا ، بـرزت الهليوكوبتر الإسرائيلية فوقه مباشرة ، وهدير مراوحها الضخمـة يكاد يصمّ أذنيه ..

وكان هذا يعنى أن طاقم الدورية الطائرة داخلها قد لمحه حتمًا .

وأدرك هويته ..

ومعنى وجود مظلة الهبوط ..

ويعنى بالتبعية أن عملية (عنق الزجاجة) قد فشلت .

قبل حتى أن تبدأ ..

★ ★ ★

« هل تعتقد أنهم سيفعلونها ؟! »

ألقى رئيس الجمهورية (أنور السادات) السؤال ، على وزير الحربية[*]، داخـل مكتبـه فى القصر الجمهـورى ، وهو يشعل غليونه الشهير ، فى محاولة للتغلّب على توتره وانفعاله ، قبل أن يلقى نظرة على ساعته ، متابعًا :

ـ إنها الدقائق الأولى من يوم الحسم ، والمفترض ألا يفصح الأولاد عن وجودهم ، إلا قبيل ساعة الصفر بدقائق معدودة ..

(★) فى تلك الفترة ، كان وزير الدفاع يعرف بوزير الحربية .

قال وزير الحربية ، فى وقفته العسكرية الصارمة :

ـ سيبذلون قصارى جهدهم يا سيادة الرئيس ، ولن يترددوا فى التضحية بحياتهم نفسها ، فى سبيل وطنهم .

أومأ الرئيس برأسـه متفهمًا ، ونفث دخـان غليونـه ، وهو يغمغم :

ـ أعلم هـذا يا رجل .. أعلم هذا .. قبولهم المهمة ، فى ظل هذه الظروف ، أسفر عن معدنهم ووطنيتهم .

ثم انطلق من أعمق أعماق صدره تنهيدة كبيرة ، قبل أن يواصل :

ـ ولكنك تعلم مدى دقة وخطورة الموقف .. لقد بذلنا جميعًا جهدًا خرافيًّا ، طوال عام كامل ، لنقنع الإسرائيليين بأنه ليست لدينا النيـة لخوض حـرب ضدهم ، بأى حال من الأحوال ، وفى الآونة الأخيرة بالذات ، بلغت خطة الخداع ذروتها ، فأعلنا عن فتح باب التسجيل لعمـرة (رمضـــان) ، وعن زيـارة اللـواء (حسنى مبارك) ، قـائد القـوات الجوية للجمهـورية الليبيـة ، وإعداد مراسم استقبال بعض الضيوف الأجـانب ، وتعمدنـا أن نظهر فـى كل الصـور الرسمية هادئين مبتسمين ، شـأن أيـة حكومة مستقرة ، لا يخطر ببالها القيام بأيـة عمليات عسكرية ، بل إننا حتى قد قمنا بدراســة موقف المـواد التموينيـة ، بحيث

لا يجذب اهتمامنا بتخزين السلع الرئيسية انتباه العدو(*)..
لا يمكننى أن أتصوَّر أنه ، بعد كل هذا ، يمكن أن تنكشف خطة المعركة كلها ، قبل ساعة الصفر ، بسبب خطأ غير مقصود ، أو تهوّر غير مدروس مثلاً ..

شدَّ وزير الحربية قامته أكثر ، وهو يقول فى حزم :

ـ الرجال يفضلون الموت على هذا يا سيادة الرئيس ؛ لأنهم يدركون ويقدرون مدى أهمية وخطورة مهمتهم ..

نفث الرئيس (السادات) دخان غليونه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ أتعشَّم هذا أيها الوزير .. أتعشَّم هذا .

كان بالتأكيد يدرك ويثق بكفاءة الرجال ..

ولكنه ، فى ظل هذه الظروف ، لم يكن يستطيع منع ذلك القلق ، الذى تصاعد فى أعماقه ، حتى بلغ الذروة ..

أو أكثر قليلاً ..

★ ★ ★

لم يكن من الممكن أن تضيع ثانية واحدة ..

لقد أدرك (أدهم) أن الدورية الإسرائيلية الطائرة ، المسئولة عن مراقبة وتأمين الجبال ، التى يخترقها ممر (متلا) ، قد لمحت ، ولمحت جثة (منير) ومظلته ..

(★) حقيقة .

وأدركت ما يعنيه هذا ..

وأنه فى الثانية التالية مباشرة ، سيتم إبلاغ القيادة ، وإعلامها بوجود رجال مظلات مصريين عند الممرات ، و ...

وهو لن يسمح بحدوث هذا قط ..

مهما كان الثمن .

وقبل أن تمضى الثانية ، كان الملازم أوَّل (أدهم) قد حسم موقفه ..

ودرس مأزقه ..

واتخذ قراره ..

ونفذه ..

وقبل حتى أن يدرك الكل ما يحدث ، حتى ركاب الهليوكوبتر أنفسهم ، كان (أدهم) يعدو نحوها كالصاروخ ، ثم يثب ..

كانت الهليوكوبتر ترتفع أربعة أمتار كاملة عن الأرض ، ولكنه دفع قدميه فى صخرة كبيرة ، ثم وثب نحوها ككرة من المطاط .

ومن حيث يختبئ الرجال ، فغر النقيب (مدحت) فاه فى ذهول ، فى حين هتف المقدَّم (راشد) :

ـ ماذا يفعل هذا المجنون ؟!

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، كان الملازم أوَّل (أدهم) قد تعلَّق بالقائم السفلى للهليوكوبتر ، ثم دار حول نفسه بمرونة مذهلة ، ووثب داخل الهليوكوبتر ، عبر بابها الجانبى المفتوح ..

واتسعت عيون ركاب الهليوكوبتر الأربعة فى ذهول ، وهو يستقر بجسده داخلها ، قائلاً :

ـ هل أفزعتكم ؟!

وثب أحدهم نحو مدفعه الآلى ، واستلَّ الثانى والثالث مسدسيهما ، فى حين اختطف الرابع بوق اللاسلكى ، فى سرعة ولهفة ..

ولكن أسد الصاعقة تحرَّك بسرعة استحق معها لقبه ..

تحرَّك كالصاعقة ..

صاعقة انقضَّت على أسنان الأوَّل ، وهشَّمت أنف الثانى ، وقبضت على معصم الثالث ، لتمنعه من إطلاق رصاصته ، فى نفس اللحظة التى أصيب فيها الرابع بركلة كالقنبلة فى مؤخرة عنقه ، قبل أن يضغط زر الاتصال ، فاندفع جسده إلى الأمام فى عنف ، وارتطم بزجاج الهليوكوبتر الأمامى ، وصدره يدفع عصا القيادة ..

وفى نفس اللحظة ، التى تحطَّم فيها فك الإسرائيلى الثالث ، كانت الهليوكوبتر تميل إلى الأمام بحركة عنيفة ، ثم تهوى بكل قوة محركاتها إلى أسفل ..

نحو مدخل الممر ..

مباشرة ..

* * *



٢ ـ ساعات الخطر ..

هب (باراك عمتاى) ، رجل المخابرات الإسرائيلى ، ومسئول أمن الممرات ، من فراشه فى حدة ، مع رنين الهاتف ، واختطف سمَّاعته فى سخط ، وهو يقول فى عصبية :

ـ (عمتاى) .. من المتحدِّث ؟!

أتاه صوت رئيسه المباشر ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ إنه أنا يا (باراك) .. هيا انفض النوم عن عينيك ، فأمامك عمل عاجل وطارئ .

ألقى (باراك) نظرة على ساعته ، وهو يقول محنقًا :

ـ فى هذه الساعة ؟!

أجابه رئيسه فى غلظة :

ـ أهناك ساعات محدَّدة للطوارئ ؟! هيا يا رجل .. لا وقت فى عملنا للتقاعس والتكاسل .

تثاءب (باراك) ، وهو ينهض من فراشه ، متسائلاً :

ـ ماذا هناك ؟!

أجاب رئيسه :

ـ هليوكوبتر الدورية الطارئة ، عند ممر (متلا) ، سقطت أمام الممر ، وانفجرت هناك .

نفض الخبر كل أثر للنعاس ، من عينى (باراك) ، وهو يسأل :

ـ أهى عملية مصرية ؟!

قال رئيسه فى خشونة :

ـ ما هو عملك إذن ؟! المفترض أن تجيب أنت هذا السؤال .. لقد أرسلت خبيرًا إلى موقع الحادث ، لفحص حطام الهليوكوبتر ، وآخر لبحث سبب مصرع ركابها ، وعليك أنت أن تحدِّد مسئولية المصريين عن سقوطها .

صمت (باراك) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ وما الذى سيأتى بالمصريين إلى هنا ؟!

أجابه فى حدة :

ـ اذهب وابحث بنفسك .

زفر (باراك) فى توتر ، وقال :

ـ حسنًا .. حسنًا .. سأذهب على الفور .

أنهى الاتصال ، وهو يشعر بسخط شديد ، وراح يتساءل في أعماقه ، وهو يرتدى ملابسه : أمن الممكن أن يكون للمصريين يد فى هذا الحادث ؟!

لم يبد له السؤال منطقيًا ، فى ظلّ هذه الظروف ؛ فكل الدلائل والمعلومات ، الواردة من المخابرات الأمريكية ، ومن رجال (الموساد) ، فى كل أنحاء العالم ، تؤكّد بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المصريين لن يحاربوا أبدًا ..

ليس خلال العام الحالى أو التالى على الأقل ..

ثم إن حرب الاستنزاف قد توقّفت ، بعد مبادرة (روجرز) ، ولم يعد هناك مبرّر لتوغّل المصريين فى العمق ، والقيام بعملية محدودة كهذه !!

فبم يفيدهم إسقاط هليوكوبتر الدورية الجوية ؟!

إنهم يعلمون حتمًا أن هليوكوبتر جديدة ستحلّ محلّها ، خلال نصف الساعة فحسب ..

فما الذى يمكن فعله ، خلال نصف الساعة ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يراجع كل هذا فى ذهنه ، قبل أن تقفز إلى كيانه كله فكرة واحدة ..

عملية إبرار جوى ..

المبرّر الوحيد لإسقاط هليوكوبتر الدورية الجوية ، هو الاستعداد لهبوط بعض رجال المظلات على الجبل ..

بدت له الفكرة مخيفة إلى حد كبير ، وهو يدسّ مسدسه فى حزامه ، ويهبط ليستقل سيارته (الجيب) ، فى طريقه إلى المطار الحربى القديم ، لتحمله هليوكوبتر أخرى إلى موقع الحادث ..

إلى ممر (متلا) ..

وفى أعماقه ، حاول أن يعترض على فكرة الإبرار الجوى ، بحجة أنه من المستحيل أن يخاطر المصريون بعمل جنونى كهذا ، خلال شهر (رمضان) ، الذى يميلون فيه إلى الدعة والاستكانة ، والإكثار من الصلوات والأدعية ..

لن يقدموا حتمًا على استفزازهم بعملية عسكرية ، فى هذه الأيام ..

ثم إنه لماذا يسقطون هليوكوبتر الدورية ، ويفجرون كل هذه الشكوك ؟!

كان بإمكانهم إسقاط رجالهم ، قبيل خروجها مباشرة ..

كان يبذل قصارى جهده ، لإبعاد الفكرة عن خاطره ..

ولكنها أبت تمامًا ..

وبمنتهى الإلحاح ، راحت تغوص فى عقله وكيانه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندما أقلعت به الهليوكوبتر ، كانت قد استقرَّت في وجدانه تمامًا ..

أنها عملية مصرية ..

مائة في المائة ..

★ ★ ★

« هل يعني أننا قد فقدنا الملازم (أدهم) ؟! »

نطق النقيب (مدحت) العبارة في توتر بالغ ، وهو يختفي مع المقدَّم (راشد) ، بين صخور الجبل ، فهزَّ الأخير رأسه ، متمتمًا :

ـ لا يمكنني الجزم .

هتف النقيب (مدحت) مبهورًا :

ـ هل رأيت كيف وثب نحو الهليوكوبتر ؟! يا إلهي ! لقد تابعت تدريباته بنفسي لثلاثة أشهر ، وأدرك أنه متميِّز بحق ، ويمتلك مهارات وقدرات مدهشة ، تفوق عمره بكثير ، ولكنني لم أره يفعل هذا قط من قبل .

تنهَّد المقدَّم (راشد) ، وهو يغمغم :

ـ لو أنك تابعت ما يفعله لعام كامل ، مثلما فعلت أنا ، لأدركت أن هذا الشاب كان يمتلك قدرات يعجز الشخص العادي عن تصوُّرها .

غمغم (مدحت) في توتر :

ـ كان ؟!

مطَّ المقدَّم (راشد) شفتيه ، وهزَّ رأسه في أسف قائلاً :

ـ اللّه (سبحانه وتعالى) أعلم :

ثم تنهَّد في عمق مرة أخرى ، وأضاف :

ـ المهم ألا يكون الأوغاد قد أبلغوا قيادتهم ، وإلا ..

قاطعه صوت هادئ ، يقول :

ـ إنهم لم يفعلوا :

التفت الرجال إلى مصدر الصوت في لهفة ، وهتف النقيب (مدحت) في فرح :

ـ (أدهم) .. حمدًا للّه على سلامتك .. كيف نجوت من سقوط الهليوكوبتر ؟!

اندس (أدهم) إلى جوارهما ، وهو يجيب في بساطة :

ـ لقد قفزت منها ، قبل أن تهوى إلى الأرض .

قال المقدّم (راشد) فى دهشة :

ـ قفزت منها ؟! بهذه البساطة ؟!

هزّ كتفيه ، وحاول أن يسترخى ، قائلاً :

ـ لقد وفقنى اللّه (سبحانه وتعالى) .

حدّق المقدّم فى وجهه لحظة ، بمزيج من الدهشة والانبهار ، قبل أن يغمغم :

ـ ونعم باللّه .

ثم عاد يسأله فى اهتمام مبهور :

ـ ولكن كيف فعلتها ؟!

سأله (أدهم) :

ـ فعلت ماذا ؟!

أجابه النقيب (مدحت) :

ـ كيف تعلّقت بتلك الهليوكوبتر ، وهى تحلّق فوقنا ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات ، ثم أجاب :

ـ كان ينبغى أن نمنعهم من إبلاغ القيادة بوجودنا .

قال المقدّم (راشد) :

ـ نحن نعلم لماذا ، ولكننا نسألك كيف فعلتها ؟! الواقع أن الأمر بدا أول وهلة مستحيلاً تمامًا ، و ...

لم يستطع إكمال عبارته ، وكأنما لم يجد عمليًا ما يمكن أن يضيفه ، فأطبق شفتيه ، وراح يتطلّع مع النقيب (مدحت) إلى (أدهم) ، فى ترقّب ملهوف ، فتراجع هذا الأخير برأسه ، ليسنده إلى الصخرة ، وراح عقله يسبح بعيدًا ..

« أعلى يا (أدهم) .. حاول أن تقفز أعلى ، وأن تلتقط الكرة فى الهواء .. » .

« ولكننى تجاوزت المتر ونصف المتر بالفعل يا أبى ، والرقم القياسى العالمى هو ... » .

« دعك من الأرقام القياسية .. انسها .. انفضها عن عقلك .. لا تجعلها تخدعك ، وتحدّ من طموحك وغاياتك .. » .

« ولكننى مجرّد بشر .. » .

« ومن أدراك ما حدود قدرات البشر ؟! إننا نصفق كل عام لبطل رياضى ، حطم الرقم القياسى فى مضماره ، ثم يفاجئنا بطل آخر ، فى العام التالى ، بتجاوزه ذلك الرقم الجديد ، وانطلاقه إلى ما خلف حدود المنطق المحدود .. المهم هو المران يا ولدى .. الإنسان يمكنه أن يكتسب أكثر مما يتصوّر ، بالإصرار والمران وحدهما .. » ..

استعاد ذهنه كل هذا ، وهو شارد البصر فى صمت ، قبل أن يخفض عينيه إليهما ، قائلاً فى حزم :

ـ والدى علمنى كيف أفعلها .

هتف الاثنان فى دهشة :

ـ والدك ؟!

أجاب فى حزم أكبر :

ـ نعم .. والدى .

همَّ النقيب (مدحت) بإلقاء سؤال ، حول طبيعة عمل والده ، ولكن المقدَّم (راشد) سبقه ، قائلاً :

ـ وماذا عن (منير) ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم ، يحمل رنة أسف وأسى :

ـ استشهد ..

عضَّ النقيب (مدحت) شفتيه ، وهزَّ المقدَّم (راشد) رأسه ، مغمغمًا :

ـ إنا لله ، وإنا إليه راجعون .

تابع (أدهم) :

ـ لقد تأخَّرت لأدفن جثته ، وأخفى مظلته .

ربَّت المقدَّم على كتفه ، قائلاً :

ـ حسنًا فعلت يا ولدى .. حسنًا فعلت .

إعتدل (أدهم) فى مجلسه ، وقال فى اهتمام :

ـ المشكلة الحقيقية أن تمتدَّ تحقيقاتهم ، حول سقوط الهليوكوبتر ، إلى فحص القمة .

تساءل النقيب (مدحت) فى قلق :

ـ هل تعتقد أنهم سيفعلون حقًّا ؟! أعنى أن الوقت متأخِّر ، وغدًا هو عيد الغفران بالنسبة لهم ، ولن تجد ضابطًا واحدًا ، يرغب فى الاهتمام بأمر سخيف كهذا ، فى يوم إجازته وعيده .

هزَّ (أدهم) رأسه ، قائلاً :

ـ ربما يكون الإسرائيليون أوغادًا ، ولكنهم حتمًا ليسوا بالأغبياء ، وحادث كهذا ، عند واحد من أكثر ممراتهم أهمية وخطورة ، كفيل بإلغاء كل الإجازات وحتى الأعياد ، بالنسبة للمسئولين عنه .

وافقه المقدَّم (راشد) بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ سيرسلون بعضهم حتمًا .

قال النقيب (مدحت) فى حزم :

ـ لا بد أن نستعد لقدومهم إذن ، و .....

قاطعه المقدَّم (راشد) :

ـ وماذا ؟! أنسيت أنه لا ينبغى أبدًا أن نشتبك معهم ، قبل الساعة المحدودة ، مهما كانت الأسباب ؟!

قال النقيب (مدحت) فى حدة :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟! هل نجلس فى انتظارهم ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

ـ يبدو أنه ليس أمامنا حل آخر ، فلو كشف هؤلاء الأوغاد وجودنا ، من خلال أى تحرك غير مدروس ، سيعنى هذا فشل الخطة كلها ، والقيادة تعتمد علينا تمامًا ، فى هذا الجزء من خطتها الشاملة .

تساءل المقدَّم (راشد) :

ـ وماذا لو قرَّروا تمشيط القمة ؟!

وقع سؤاله عليهما كطعنة مباغتة ، فلم يحر أحدهم جوابًا .. أى جواب ..

* * *

سرت موجة من التوتر ، فى جسد ضابط الموساد (باراك عمتاى) ، وهو يتطلَّع من طائرته إلى حطام الهليوكوبتر ، المتناثر على مسافة عدة أمتار ، من المدخل الشرقى لممر (متلا) ، وقد انهمك الخبير فى فحصه ، فأشار بيده إلى الطيَّار ، قائلاً فى صرامة شديدة ، لم يكن لها ما يبرِّرها ، من الناحية المنطقية :

ـ لا تهبط بالقرب منها ، حتى لا تفسد مراوحك أية أدلة :

أومأ الطيار برأسه إيجابًا ، ودار دورة كاملة حول المكان ، قبل أن يهبط على مسافة ثلاثين مترًا من الحطام ، فوثب (باراك) خارج الهليوكوبتر ، وضمَّ معطفه إلى صدره ، فى حركة عصبية ، وهو يقطع المسافة فى خطوات سريعة ، ويسأل خبير الحطام فى صرامة :

ـ هل وجدت شيئًا ؟!

هزَّ الرجل رأسه فى حيرة ، مجيبًا :

ـ لا يوجد أى سبب منطقى لسقوطها ، حتى هذه اللحظة .. المحركات كانت تعمل بكفاءة ، وكل شىء يسير على ما يرام .

سأله (باراك) :

ـ هم تم تبادل إطلاق نيران ، بأية وسيلة كانت ؟!

هزَّ الخبير رأسه ، مجيبًا :

ـ لا يوجد أى دليل على هذا ، وكتيبة حماية الممر لم تسمع شيئًا ، كما أن الطبيب النفسى لم يجد فى جثث القتلى آثار طلقات نارية .. هناك فقط بعض الكدمات والسحجات والإصابات ، الناشئة عن السقوط والارتطام حتمًا .

انعقد حاجبا (باراك) ؛ وهو يتطلَّع بضع لحظات إلى الحطام ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى أعلى ، متسائلاً فى خشونة :



فوثب (باراك) خارج الهليكوبتر ، وضمّ معطفه إلى صدره ، فى حركة عصبية ، وهو يقطع المسافة فى خطوات سريعة ..

ـ هل فحص أحد القمة ؟

قال الخبير فى دهشة :

ـ وما شأن القمة بالأمر ؟!

لم يكن (باراك) يمتلك جوابًا منطقيًا للسؤال ..

كان يمتلك شعوره فحسب ..

مجرد شعور ..

ومخاوف ..

وغريزة تنمو مع الوقت ، والخبرة ..

غريزة الذئاب ..

لذا ، فقد قال فى غضب محتد :

ـ هل تم فحصها أم لا ؟!

هزّ الخبير كتفيه ، قائلاً :

ـ ليس هذا من شأنى .. سلْ كتيبة الحراسة :

انعقد حاجبا (باراك) فى غضب أكثر ، وقال :

ـ كان ينبغى أن تكون هناك كتيبة أخرى على القمة .

ابتسم الخبير فى خبث ، وهو يقول :

ـ على تلك التضاريس والصخور ؟!

قال (باراك) فى صرامة :

ـ هل تعتقد أنهـا ستوقف المصريين ، لو فكروا فى احتلال الممرات ؟!

قهقه الخبير ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ المصريون ؟! المصريون لـن يحاربوا ، ولـو بعد ألف عام يا رجل .

رمقه (باراك) بنظرة باردة ، دون أى تعليق ، ثـم تجاهلـه علىٍ نحو مستفز ، وهو يتجه نحو قائد كتيبـة حراسـة الممر ، قائلاً فى صرامة :

ـ هل وضعت بعض رجالك على القمة ؟!

سأله الرجل فى حذر :

ـ أية قمة ؟!

أشار (باراك) بيده إلى أعلى ، وهو يقول فى حدة :

ـ وهل توجد قمة غيرها ؟!

انعقد حاجبا قائد الكتيبة ، وهو يقول :

ـ القيادة لم تأمر بهذا قط ، لأنها تدرك استحالة هذا ، بسبب صعوبة الـ .....

قاطعه (باراك) فى غضب :

ـ أية حماقة هذه ؟! منذ متى كانت صعوبة التضاريس عائقًا ، أمام العمليات الحربية الانتحارية ؟! ماذا ستفعلون إذا ما باغتكم المصريون بهجوم انتحارى هنا ؟! هل ستخبرونهم أن التضاريس صعبة ؟!

انتقل غضبه إلى قائد كتيبة الحراسة ، وهو يقول فى حدة :

ـ لو أنك راجعت كل ما لديك من معلومات ، يا ضابط (الموساد) المتحذلق ، لأدركت أن المصريين لم يقوموا بعملية واحدة هنـا ، منذ وضعت حرب يونيو أوزارها ، وكـل الإحصائيات والدراسـات تؤكد ، أنهم لـن يقدموا على مثل هـذه الحماقة ، إلا فى حالة إقدامهم على شن حرب شاملة .

ثم مال نحوه فى تحدٍ ، مستطردًا :

ـ هل تقول معلوماتك إنهم سيقدمون عليها ؟!

تبادل كلاهما نظرة متحدية صارمة مع الآخر ، قبل أن يقـول (باراك) :

ـ يبدو أنـك قد نسيت أن هليوكوبتر الدورية قد سـقطت فـى دائرة اختصاصك .

اعتدل الرجل ، وهزَّ كتفيه فى تحدٍ ، قائلاً :

ـ دائرة اختصاصى أرضية ، وليست جويه ، يا ضابط (الموساد) .

تضاعف غضب (باراك) ، وهو يستدير بحركة حادة ، ويعود إلى الهليوكوبتر ، التى أتى بها ، ويثب داخلها ، قائلاً للطيار فى صرامة عصبية :

ـ هيا .. ارتفع بنا يا رجل .. أريد تفقُّد القمة شخصيًّا .

ارتفعت الهليوكوبتر على الفور ، محلِّقة نحو القمة ، و (باراك) داخلها أشبه بقنبلة منزوعة الفتيل ، توشك على الانفجار ..

لم يكن لديه أدنى دليل ، على ذلك الشعور المتصاعد فى أعماقه ..

بل على العكس ، الدلائل كلها تؤكِّد أنه مخطئ ..

الهليوكوبتر لم تنفجر فى الجو ..

وركابها لم يصابوا بأية طلقات نارية ..

أو حتى بأسلحة بيضاء ..

كان سقوطًا حرًا ، أدى إلى انفجارها فوق رمال (سيناء) ..

لا يوجد دليل واحد على اعتداء مباشر ..

وعلى الرغم من هذا ، فما حدث لا يروق له أبدًا ..

هناك ألف علامة استفهام ، تحيط بالموقف كله ..

لماذا سقطت الهليوكوبتر ، ما دام كل شىء فيها كان يسير على مايرام ؟!

لماذا لم يحاول ركابها إرسال إشارة استغاثة واحدة ؟!

ولماذا فوق الممر بالتحديد ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

ارتفعت الهليوكوبتر فى سرعة ، حتى بلغت القمة ، قبل أن يجد جوابًا لأى من أسئلته ، وقال الطيار فى هدوء :

ـ هل نطوف بالمكان كله ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بالتأكيد .

ثم التقط من جيب معطفه منظارًا خاصًا بالرؤية الليلية ، ووضعه على عينيه ، وراح يفحص به القمة كلها ..

وكما تلقوا تدريباتهم ، كمن الأسود فى مخابئهم بين الصخور ،

مستترين بشباكهم المموَّهة ، التى فردوها فى المكان ، ببراعة ودقة تستحقان الإعجاب ..

لذا فقد بدا كل شىء ، بالنسبة لعينى (باراك) ، هادئًا مستقرًا ، تحت ضوء القمر الخافت ، فى ليلة العاشر من رمضان ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يشعر بالارتياح ..

أبدًا ..

كل ما فعله هو أن أشار بيده فى عصبية ، قائلاً للطيار :

ـ عد بنا يا رجل .

ولم يكد الطيار يدور بالهليوكوبتر عائدًا ، حتى أضاف فى توتر :

ـ سنكرِّر المحاولة فى ضوء النهار .

نطقها ، وكل ذرة فى كيانه تشعر بتوتر عجيب ..

توتر بلا سبب واضح ..

وبلا حدود ..

* * *

« هل تعتقدان أنه سيعود ؟! »

نطق المقدِّم (راشد) سؤاله فى توتر ، وهو يتابع ابتعاد الهليوكوبتر الإسرائيلية نحو الشرق ، فأطلق النقيب (مدحت) من أعماق صدره زفرة حارة ، وهو يجيب :

ـ أخشى أنه من المحتمل جدًا أن يفعل .

أما (أدهم) ، فقد صمت لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ لو أننى فى مكانه لفعلت حتمًا .

ثم أشار إلى السماء ، متابعًا :

ـ عندما تشرق الشمس .

هزَّ المقدِّم (راشد) رأسه فى توتر ، وقال :

ـ هذا أمر خطير للغاية ، فالشباك المموَّهة ، التى أخفت وجودنا ، على ضوء القمر ، لن تفلح فى خداعهم ، تحت أشعة الشمس .

عضَّ (مدحت) شفتيه فى حنق ، وهو يهتف :

ـ يا له من موقف سخيف ! كم أكره اضطرارنا للاختباء هكذا ، من هؤلاء الحقراء .. إننى أتوق للاشتباك معهم ، وتحطيم غرورهم السخيف ، وغطرستهم المتعالية .

قال المقدِّم (راشد) فى صرامة :

ـ كلنا هذا الرجل ، ولكنك تعلم مثلنا أن الكشف عن وجودنا ،

قبيل الوقت المحدود ، لن يعنى فشل عمليتنا فحسب ، ولكنه سيعنى أيضًا تنبيه الإسرائيليين إلى ما يدور فى الخفاء ؛ لأن دراساتهم تجعلهم حتمًا يدركون ، أن عملية إنزال فرقة من الصاعقة على قمة ممر (متلا) ، لايمكن أن تحدث ، إلا فى حالة إقدام (مصر) على حرب شاملة ، ولو أدركوا هذا ، قبل ساعات من ساعة الصفر ، سنفقد عامل المفاجأة تمامًا ، مما يعرِّض رفاقنا فى الممر الآخر لخطر داهم ، ويعرِّض (مصر) والعالم العربى كله لضياع فرصة نادرة للثأر والتفوق ، وتحطيم أسطورة جيش (إسرائيل) الذى لا يُقهر .

وصمت لحظة ، ثم ربَّت على كتفه ، متابعًا :

ـ ثم إنها مسألة وقت يا بطل .. المواجهة التى طال شوقنا وانتظارنا لها ستبدأ بعد ساعات قليلة .

نهض (أدهم) من مكانه ، قائلاً فى حزم :

ـ المهم أن نحسن استغلال هذه الساعات ..

سأله المقدَّم (راشد) فى حيرة :

ـ ماذا تعنى أيها الملازم ؟

ـ أشار (أدهم) بيده ، مجيبًا :

ـ أعنى أنه من الواضح أن أحدهم يشعر بالشك ، ويتميَّز بالحذر والقلق الزائدين ، ومن المؤكد أنه سيقوم بمحاولة أخرى لتمشيط القمة ، بعد شروق الشمس .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف بكل الحزم :

ـ وهذا يعنى أنه علينا أن نعمل ، بمنتهى الهمة والنشاط ، خلال ما تبقَّى من ساعات الليل ، وإلا ....

لم يتمّ عبارته ، ولكن كل من سمعه فهم ما يعنيه ..

فإما أن يجدوا وسيلة لتفادى ما سيحدث فى الصباح ، قبل حلول ساعة الصفر ، أو تكون العواقب وخيمة .. للغاية ..

★ ★ ★

كادت صرخة مدير مكتب (الموساد) تخترق أذنى (باراك) ، عبر أسلاك الهاتف ، وهو يقول بمنتهى الغضب :

ـ قنابل حارقة ؟! هل جننت يا رجل ؟! هل تعلم أى رد فعل يمكن أن نواجه ، لو ألقينا القنابل الحارقة عشوائيًا ، على قمة الممر ؟!

قال (باراك) فى صرامة :

ـ إننى أفكِّر فى رد الفعل الذى سيواجهنا ، لو كان المصريون هناك كما أتصوَّر .

هتف به رئيسه فى حدة :

ـ وما الذى يدفعك إلى هذا التصوَّر ؟! هل رأيت أحدهم ؟! ألديك أية معلومات ، لم تخبرنى بها ؟!

انعقد حاجبا (باراك) فى توتر بالغ ، وهو يقول :

ـ كلاً .

ثم استدرك فى عصبية :

ـ ولكن الاحتمال قائم ، ولا يمكننا إهماله .. من الناحية الرسمية على الأقل .

طال صمت رئيسه هذه المرة ، وكأنما يحاول دراسة الموقف ، أو السيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول :

ـ (باراك) .. عندما تشرق الشمس ، ستحتفل (إسرائيل) كلها بعيد (كيبور) .. أهم أعيادنا الدينية ، ونصف قوات الجيش فى إجازة رسمية ، ثم إنه يوم سبت ، وأنت تعلم كم يبغض المتدينون العمل فى هذا اليوم ، إلا لضرورة قصوى .

زمجر (باراك) ، قائلا :

ـ إننى أعتبر هذا الأمر ضرورة قصوى .

صمت رئيسه لحظات أخرى ، ثم قال فى صرامة :

ـ لو أننا ألقينا القنابل الحارقة على قمة الممر ، سنثير عاصفة من التساؤلات والقلق ، ولن يرحمنا أحد ، لو كنا مخطئين .

قال (باراك) بنفس الصرامة :

ـ سأتحمّل المسئولية كاملة .. وسأوقّع كل الأوراق اللازمة لذلك ..

حمل صوت رئيسه الكثير من الحيرة ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! لماذا تجازف بأمر كهذا ؟!

ولم يحر (باراك) جوابًا هذه المرة ..

إنه لا يدرى حتى لماذا يفعل كل هذا ؟!

لماذا يخاطر بسمعته وتاريخه ، من أجل شكوك بلا دليل ؟!

لماذا ؟!

ولكن شيئًا ما فى أعماقه كان يقاتل من أجل هذا ..

شىء لا يدرى كنهه بالضبط ..

ولكنه يسيطر على كل مشاعره ..

وكل إرادته ..

وعلى الرغم من أنه لا يمتلك دليلاً واحدًا ، فقد أجاب رئيسه فى حزم :

ـ أنا واثق .

تنهّد رئيسه ، وقال :

ـ فليكن يا (باراك) .. وقع الأوراق اللازمة ، وسأبحث عن طيار واحد ، يقبل التنازل عن إجازته ، والقيام بالمهمة ، بشرط واحد ..

سأله (باراك) فى حذر :

ـ وما هو ؟!

أجابه رئيسه فى صرامة :

ـ ألا تبدأ تلك العملية السخيفة ، إلا بعد شروق الشمس ، فلست أميل إلى إشعال النيران فى قلب الليل ، ليراها العالم كله .. هل تفهم ؟!

غمغم (باراك) ، محاولاً السيطرة على انفعاله :

ـ بكل تأكيد .

قال رئيسه ، قبل أن ينهى المحادثة :

ـ ولا تنس إخبار كتيبة الممر ، أنها مجرد تجربة أمنية .

التقط (باراك) نفسًا عميقًا ، وهو يعيد سمّاعة الهاتف ، وانعقد حاجباه فى شدّة ، وهو يشعر بموجة من الانفعالات فى أعماقه ..

وبتوتر لا محدود ، ألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثانية والنصف صباحًا ، وراح قلبه يخفق فى عنف ..

لقد وصل أخيرًا إلى ما يبتغيه ..

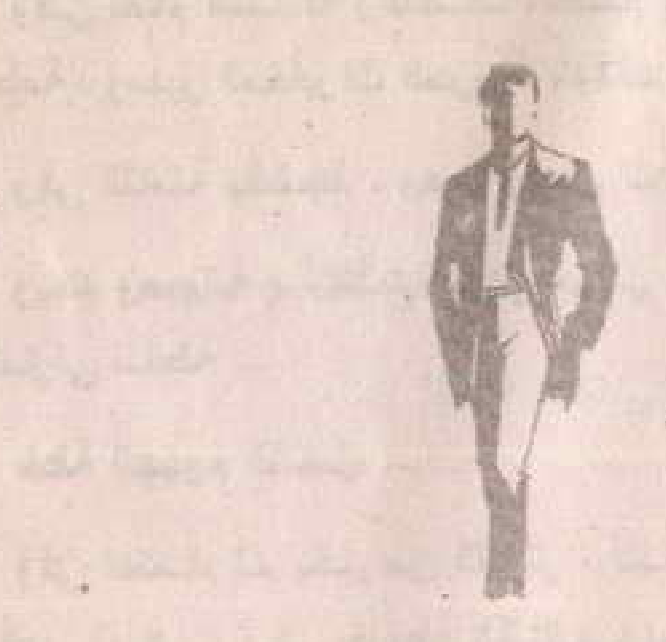
سيشعل النيران فى قمة الممر ..

وسيحيل المكان كله إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

بهذا فقط يطفئ شعلة الشك والقلق فى أعماقه .. إلى الأبد .

* * *



٤ ـ الجحيم ..

لم تكد شمس السادس من أكتوبر ١٩٧٣م تشرق ، على (مصر) كلها ، حتى بدأت سلسلة من النشاطات والتحركات ، التى شملت كل قيادات الجيش ، والشرطة ، والمخابرات ..

وعلى الرغم من أن اليوم قد بدأ كأحد أيام (رمضان) المعتادة ، إلا أن حجرة القيادة فى مركز العمليات العسكرية الرئيسى ، قد شهدت وصول وزير الحربية ، وقائد الأركان ، وقادة كل أفرع الجيش ، منذ السابعة صباحًا ..

وفى تمام السابعة والنصف ، انضمّ إليهم مدير المخابرات العامة ، ومدير المخابرات الحربية ، وقائد الشرطة العسكرية ..

وفى الثامنة بالضبط ، وصل رئيس الجمهورية ..

وبعد وصوله ، أغلقت أبواب مركز العمليات ، وبدأ العد التنازلى للخطة ..

خطة الهجوم الشامل ..

وفى اهتمام لم يخل من التوتر ، أشار رئيس الجمهورية (أنور السادات) إلى خريطة القناة و (سيناء) ، وهو يقول :

ـ العبور ينبغى أن يبدأ فى الساعة ألف وأربعمائة(*) .. إننا نعتمد تمامًا على الضربة الجوية الأولى ، التى يفترض أن تشل فاعلية سلاح الطيران الإسرائيلى ، إلى أقصى حد ممكن ، وبعدها ستبدأ موجة العبور .

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، متسائلاً :

ـ هل اتخذتم اللازم ، بشأن أنابيب النابالم ؟!

أجابه مدير المخابرات الحربية :

ـ الضفادع البشرية تقوم بعملها الآن ، لسد فتحات الأنابيب ، تحت مياه القناة ، ولدينا فرقة أخرى فى قلب (سيناء) ، قامت بقطع الخراطيم المدفونة تحت الرمال .

أومأ الرئيس برأسه ، قائلاً :

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وهو يسأل فى اهتمام شديد :

ـ وماذا عن أولادنا فى الممرات ؟!

أجابه قائد الصاعقة :

(*) الثانية ظهرًا بلغة العسكريين .

- كل شىء على ما يرام ، حتى هذه اللحظة يا سيادة الرئيس ، فلم يتم رصد أية اشتباكات مباشرة ، أو غير مباشرة ، ولم يتخذ الإسرائيليون أية إجراءات ، توحى بأنهم قد أدركوا طبيعة الموقف ، ولكن ...

سأله الرئيس فى توتر :

- ولكن ماذا ؟!

تردَّد قائد الصاعقة لحظة ، قبل أن يجيب :

- أمس ، سقطت هليوكوبتر إسرائيلية ، عند ممر (متلا) ، ولقد بدأ الإسرائيليون تحقيقاتهم على الفور ، ولقد أسندوها إلى ضابط موساد ، يدعى (باراك عمتاى) .

هتف مدير المخابرات العامة :

- يا إلهى !

التفت إليه الرئيس ، يسأله فى قلق :

- هل تعرف الرجل ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

- (باراك عمتاى) واحد من أخطر وأذكى ضباط (الموساد) ، وأكثرهم براعة وشراسة ، وهو خبير فى الشئون العسكرية

المصرية ، ولديه قدرة مدهشة على الاستدلال والاستنتاج ، كما أنه يتميَّز بالإصرار والعناد ، حتى إنه لم يخسر عملية واحدة فى حياته قط .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يتساءل :

- هل تعتقد أنه قادر على كشف أمر أولادنا ؟!

صمت مدير المخابرات العامة بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى اقتضاب حازم :

- حتمًا .

فجَّرت كلمته موجة عنيفة من القلق ، فى نفوس الجميع ، فأضاف فى سرعة :

- ولكنها مسألة وقت .

هزَّ الرئيس رأسه ، مغمغمًا :

- بالضبط .. مسألة وقت .

ثم أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يضيف فى توتر :

- المهم أن يدرك أولادنا عند الممرات هذا .

كان الرئيس يشعر برغبة عارمة فى تدخين غليونه الشهير ، لولا صيام (رمضان) ، لذا فقد لوَّح بيده ، وهو يستدير إلى قائد القوات الجوية ، متسائلاً ، وكأنما يرغب فى تحويل مدار الحديث :

- والآن ماذا عن ضربتنا الأولى ؟! هل تدرك أنها قد تحسم أمر الحرب كلها تقريبًا ؟!

فى نفس الوقت ، الذى راح فيه قائد القوات الجوية يجيب تساؤل الرئيس ، كانت عقول الحاضرين جميعهم تسبح فى تساؤل واحد ..

تُرى هل يمكن أن تمضى أزمة ممر (متلا) هذه بسلام ؟!

هل ؟!

* * *

مطَّ الطيار الإسرائيلى المنتدب للمهمة ، شفتيه فى حنق ، وهو يشير إلى (باراك) ، قائلاً :

- لست أدرى بالضبط ما الذى تهدف إليه ، من مهمة سخيفة كهذه يا ضابط (الموساد) ، ولكننى أرجو أن ينتهى كل شىء فى سرعة ، حتى يمكننى اللحاق بخطيبتى ، والاحتفال معها بالعيد .

أجابه (باراك) فى صرامة :

- قم بعملك جيدًا ، وسينتهى كل شىء بسرعة يا رجل .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، مضيفًا فى حدة :

- ولقد أضعت وقتًا ثمينًا بالفعل ، فهى الثامنة والنصف الآن .

بدا الضيق على الطيار ، وهو يقول :

- إنه وقت مناسب ، للقيام بمهمة غير ذات معنى .

ثم سأله فى صرامة ساخطة ، وهو يرتدى خوذته :

- هل تنوى قصف القمة كلها ؟!

أجابه (باراك) :

- أريد أن أشعل عليها جحيمًا حقيقيًا .

ابتسم الطيار فى سخرية ، قائلاً :

- هل كنت تهوى العبث بعيدان الثقاب فى طفولتك ؟!

رمقه (باراك) بنظرة نارية ، قبل أن يبتعد بخطوات سريعة ، قائلاً :

- هيا .. قم بعملك يا رجل ، وسنتبعك بالهليوكوبتر ، لنرى ما فعلته .

رفع الطيار يده بتحية عسكرية ساخرة ، وهو يقول :

- عُلِمَ وسينفَّذ .

ثم أسرع إلى طائرته ، وقفز داخلها ، وأشعل محركاتها ، وهو يغلق كوة كابينة القيادة فى إحكام ، فى حين استقلَّ (باراك) الهليوكوبتر ، وهو يقول للطيار :

- هل سيسبقنا كثيرًا ؟!

هزّ طيار الهليوكوبتر كتفيه ، قائلاً :

- بالتأكيد .. (الفانتوم) تنطلق بضعفى سرعة الصوت ، وسرعتنا القصوى لا تبلغ ثلث سرعتها .

ثم أدار المحركات ، وارتفع بالهليوكوبتر ، متابعًا :

- وهذا يعنى أنه سيبلغ الهدف ، ويقوم بمهمته ، ويعود بالفعل إلى القاعدة ، قبل أن نبلغ نحن منتصف المسافة إلى قمة الممر .

نطقها ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الطائرة (الفانتوم) نحو الهدف ..

نحو ممر (متلا) ..

وقائدها يحمل الأمر بمهمة محدودة ..

أن يحيل القمة إلى قطعة من الجحيم ..

بحق ..

* * *

تحرّك المقدّم (راشد) بمنتهى الخفة ، بين صخور القمة ، وهو يشير بيده إلى رجاله ، إشارات يفهمها كل منهم جيدًا ،

حتى يتخذوا مواقعهم الجديدة ، قبل أن ينزلق بين الصخور إلى مكمن قريب من المنحدر ، قائلاً للنقيب (مدحت) :

- كل شىء على ما يُرام .. الرجال أخلوا القمة تمامًا ، واختفوا بين صخور المنحدر .. الواقع أن أفكار ذلك الملازم مدهشة بحق .

تنهّد النقيب (مدحت) ، مغمغمًا :

- إنه يبهرنى .. صحيح أن الرجال قد بذلوا جهدًا كبيرًا ، لإنشاء تلك المخابئ ، فى الأجزاء المنحدرة من القمة ، وأن استقرارهم فيها يرهقهم أكثر ، خاصة وأنهم يصرون على مواصلة صيامهم ، إلا أنهم بالتأكيد أكثر أمنًا ، لو قام الإسرائيليون بتمشيط القمة .

تنهّد المقدّم بدوره ، قائلاً :

- كل ما نحتاج إليه هو بعض الوقت يا رجل ، فما إن تشير عقارب الساعة إلى ألف وثلاثمائة وخمسة وأربعين ، حتى نذيقهم من الويل ما لم يهاجمهم ، حتى فى أبشع كوابيسهم .

أمسك النقيب (مدحت) مدفعه الآلى فى قوة ، قائلاً :

- كم أحلم بقدوم هذه اللحظة .

ربّت (راشد) على كتفه فى قوة ، قائلاً :

ستأتى يا رجل .. ستأتى بإذن الله ورعايته (عزّ وجلّ) ..

ثم اعتدل مضيفًا فى حزم :

- والآن احرص جيِّدًا على رعاية طاقمك ، وسأعود أنا إلى طاقمى ، حتى تحين ساعة الحسم .

كانت مجموعة الصاعقة قد انقسمت إلى ثلاث فرق ، يقود كل منها أحد الضباط ، ويكمن مع رجاله فى جانب من الجوانب المنحدرة من الجبل ..

وفى المجموعة التابعة لـ (أدهم) غمغم أحد الجنود فى عصبية :

- لقد سئمت الانتظار .. إننا هنا لنقاتل ، لا لنختبئ .

أجابه (أدهم) فى هدوء :

- لا تتعجَّل يا بطل .. ما هى إلا ساعات ، وتُشبع كل اللهفة فى أعماقك ..

لقد انتظرنا لسنوات ، ولن يضيرنا الانتظار لساعات أخرى .

غمغم الرجل :

- صدقت يا سيِّدى .. صدقت .

سأل جندى آخر فى لهفة :

- قل لى يا سيادة الملازم : كيف فعلتها أمس ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) فى صمت ، فهتف آخر مبهورًا :

- إننا لم نصدِّق أعيننا عندئذ .

وقال رابع :

- الواقع أننا ندرك من التدريبات ، أنك أكثرنا براعة يا سيِّدى ، ولكن ما فعلته أمس كان .. كان ..

ارتج عليه ، ولم يجد التعبير المناسب ، فهتف خامس :

- مذهلاً ..

وأضاف سادس فى حماس :

- وفوق طاقة البشر !

أجابه (أدهم) فى حزم :

- ومن أدراك ما حدود طاقة البشر .

سأله الأوَّل :

- هل تعنى أنه من الممكن أن يبلغ أحدنا هذا ؟!

أجابه فى حزم أكبر :

- بالتأكيد .

سأله آخر فى لهفة :

ـ كيف ؟!

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ بالمـران والتدريب المستمر ، والصبر ، والبعد عن كل ما يسىء إلى جسدك وقدراته ، كالخمور والتدخين ، والإفراط فى الطعام أو الشراب ، أو ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع فجأة هدير طائرة تقترب ، فهتف بالرجال :

ـ اختبئوا .

أسرع الجميع يختفون فى مكامنهم ، بين صخور المنحدر ، و ...

وفجأة ، وبلا مقدمات أو توقعات ، دوت الانفجارات ..

انفجارات متتالية ، ارتجّ لها الجبل كله ، واشتعلت معها النيران فى قمته ، التى جرت بين صخورها مادة (النابالم) الحارقة ، كحمم أطلقها بركان ثائر ..

وقفز الرجال إلى أسلحتهم ، صارخين :

ـ حانت لحظة القتال .

ولكن (أدهم) صاح بهم فى صرامة :

ـ إياكم أن يطلق أحدكم رصاصة واحدة .

صرخ أحدهم فى غضب :

ـ ولكنهم يقتلوننا .

صرخ فيه (أدهم) :

ـ فليفعلوا .. دعهم يقتلوننا .. فلو أطلقنا رصاصة واحدة ، ستموت (مصر) كلها .

وحمل صوته كل حزم وصرامة الدنيا ، وهو يضيف :

ـ (مصر) يا رجال .. (مصر) .

كانت القنابل تدوى فى كل مكان ، والنيران تشتعل كجحيم حقيقى ، وتهدِّد كلاً منهم بموت محتوم ، إلا أنهم تبادلوا نظرة متوترة صامتة ، ثم خفض كل منهم سلاحه ..

واستسلم لقدره ..

من أجل (مصر) ..

واقترب دوى الانفجارات أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعضَ الرجال شفاههم فى غيظ ، وغضب ، ومرارة ، وكادت أصابعهم القويةَ تعتَصر أسلحتَهم ..

ثم جاء الانفجار الأخير أكثر قربًا ..

وعنفًا ..

وتفجَّرت الصخور المحيطة بهم فى عنف ..

وصرخ (أدهم) :

ـ تماسكوا يا رجال .. تماسكوا ..

تدفَّقت المادة الجيلاتينية الحارقة حولهم ، وامتزجت بدماء طاهرة غزيرة ، تناثرت فى كل مكان ، وارتفعت صرخات وتأوهات مكتومة ، وشعر (أدهم) بآلام رهيبة فى ساقه ، وهو يثب إلى الخلف بحركةَ غريزية ..

ثم دوى انفجار آخر ..

وطار جسده عاليًا ..

ثم هوى فوق الصخور بعنف ..

آلام رهيبة ، سرت فى كل جزء من جسده ..

وصوت شىء يتحطَّم ، بلغ مسامعه ، وأطلق صرخة نارية فى أعماقه ..



وعضَ الرجال شفاههم فى غيظ ، وغضب ، ومرارة ، وكادت أصابعهم القوية تعتصر أسلحتهم .. ثم جاء الانفجار الأخير أكثر قربًا .. وعنفًا .. وتفجرت الصخور المحيطة بهم فى عنف !!

ونيران اشتعلت فى كم زيه العسكرى ..

ومن بعيد ، بدت له طائرة (فانتوم) (ف ـ ١٥) ، تنطلق مبتعدة ، بعد أن أنهت مهمتها ..

ونهض (أدهم) فى سرعة ..

وانعقد حاجباه فى شدة ..

لقد كان يواجه جحيمًا حقيقيًا ، فوق قمة الممر .

كتلة من النيران راحت تتراقص ، بمنتهى العنف ، فى كل مكان أمامه ..

وبكل توتر الدنيا ، اندفع عائدًا إلى مكمنه ، ليطمئن على رجاله ..

وكان الموقف رهيبًا بحق ..

أربعة من الرجال لقوا مصرعهم ، بفعل الانفجارات والقنابل الحارقة ..

ورجلان أصيبا بعنف ..

وبكل القلق ، انطلق يعبر المكان ، وسط الحطام والنيران ، وهو يهتف :

ـ سيادة المقدَّم .. سيادة النقيب .. أأنتما بخير ؟!

برز المقدَّم (راشد) أمامه ، فى حالة سيئة ، وذراعه اليسرى تنزف فى غزارة ، وهو يهتف :

ـ هؤلاء الأوغاد أشعلوا جحيمًا هنا .. لقد خسرت رجلين ، ولدى ثلاثة مصابون .

هتف (أدهم) :

ـ وماذا عن النقيب (مدحت) ؟!

برز أحد جنود الصاعقة من المكمن الثالث ، وهو يهتف :

ـ سيِّدى .. سيادة النقيب (مدحت) .. إنه .. إنه ..

قبل أن يتمَّ عبارته ، كان (أدهم) والمقدَّم (راشد) يهرعان إليه ، والأخير يهتف فى ارتياع :

ـ (مدحت) .. يا إلهى !! يا إلهى !

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى النقيب (مدحت) ، الراقد على ظهره وسط الصخور ، وقد احترق ساعده ، وملأت صدره بقعة دم ضخمة ..

وما إن وقع بصره عليهما ، حتى غمغم :

ـ أرأيتما ما فعله هؤلاء الأوغاد ؟!

وثب إليه (أدهم) يفحصه فى توتر ، فى حين أشار إليه (راشد) بيده ، قائلاً :

- لا تتحدثَ يا (مدحت) .. اصمت .

هزَّ (مدحت) رأسه ، وهو يقول فى ضعف :

- لا فائدة يا رجل .. لقد ظفروا بى ، دون أن يدركوا هذا .. هل تعلم أننى قد فقدت ثلاثة رجال ، ولدىَ آخر مصابٌ بشدة ؟!

ثم عضَّ شفتيه فى مرارة ، متابعًا :

- الشىء الوحيد الذى يؤلمنى، هو أننى لن أشارك فى المواجهة المباشرة ..

قال (أدهم) فى خفوت :

- الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم .

حاول النقيب (مدحت) أن يبتسم ، ولكن ذلك الألم فى صدره جعله يسعل مرتين ، تناثرت معهما الدماء من بين شفتيه ، قبل أن يقول فى ضعف وألم :

- لا تحاول خداعى أو خداع نفسك يا صديقى .. كلانا يعلم أنها النهاية .

ثم أمسك معصم (أدهم) ، وقال :

- ولكن عدنى ألا تذهب روحى بلا طائل .. عدنى أن تقاتلوا كالأسود ، عندما تحين اللحظة الحاسمة .

انفرجت شفتا (أدهم) ليقولها ، ولكن حناجر الرجال سبقته ، وهم يقولون فى آن واحد ، بكل الحزم والعزم والقوة :

- نعدك يا سيادة النقيب .

غمغم المقدَم (راشد) فى تأثر :

- هل سمعتهم ؟

اتسعت ابتسامة النقيب (مدحت) ، وهو يتمتم فى خفوت شديد :

- بالتأكيد .

ودون أن تتلاشى ابتسامته ، تراخى جسده كله بين أيديهم ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها ..

ولثوان ، لم ينبس أحد الرجال بحرف واحد ..

وران عليهم صمت رهيب ، لا تقطعه إلا فرقعة ألسنة اللهب ، المتطايرة على القمة فى عنف ..

ثم قطع المقدَم (راشد) ذلك الصمت ، وهو يقول فى خشوع :

- **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ . [صدق الله العظيم](*)

(★) القرآن الكريم ـ الآية ١٦٩م من سورة (آل عمران) .

نهض الرجال جميعًا ، حتى المصابون منهم ، والتفوا حول جثته فى صمت ، و ...

وفجأة ، التقطت آذانهم أزيز الهليوكوبتر ، فهتف المقدَّم (راشد) :

ـ عودوا إلى مكانكم .. سننقسم إلى فرقتين ، وفقًا لخطة الطوارئ .. على المنحدر الشمالى الجنوبى .. هيا ..

انقسم الرجال إلى قسمين بالفعل ، وانطلقوا يعدون فى الاتجاهين ، نصفهم يتبع المقدَّم (راشد) ، والنصف الآخر يتبع الملازم أوَّل (أدهم) .

وفى نفس اللحظة ، التى اختفوا فيها فى مكامنهم ، برزت هليوكوبتر (باراك) ..

وفى دهشة جذلة ، هتف طيارها :

ـ يا للبراعة ! الرجل أحال القمة إلى جحيم حقيقى .

تمتم (باراك) ، وهو يحمل آلة تصوير حديثة ، ويلتقط بها صور المكان :

ـ هذا صحيح .

كانت ألسنة اللهب تضفى على القمة المشتعلة مشهدًا رهيبًا ، وتخفى تحتها آثار الرجال ، ولكن (باراك) راح يلتقط المزيد من الصور ، قبل أن يشير إلى الطيار ، قائلاً فى حزم :

ـ هيَّا .. عد بنا إلى القاعدة .

سأله الطيار ، وهو يدور بالهليوكوبتر :

ـ هل اطمأن قلبك أخيرًا ؟!

انعقد حاجبا (باراك) ، وهو يلوِّح بآلة التصوير ، قائلاً فى صرامة :

ـ ليس بعد .

ثم أضاف فى حزم ، والهليوكوبتر تنطلق عائدة إلى القاعدة :

ـ ولكن هذا سيحسم الأمر .

مطَّ الطيَّار شفتيه ، وراح يتمتم بكلمات ساخطة ، وهو ينطلق بالهليوكوبتر ..

فمع رجل مثل (باراك) ، لم يكن هناك أمل فى قضاء العيد .. أدنى أمل ..

* * *

« القمة اشتعلت ؟! »

هتف الرئيس (السادات) بالعبارة فى قلق عنيف ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، قائلاً :

ـ هذا يعنى أن الأولاد قد انكشف أمرهم هناك .

ثم التفت إلى القادة ، مستطردًا فى حدة :

- ويعنى بالتالى أن خطتنا كلها قد انكشفت .

تبادل الرجال نظرة ، حملت كل توتر الدنيا ، قبل أن يقول مدير المخابرات الحربية فى حزم :

- لست أعتقد هذا يا سيادة الرئيس .

هتف الرئيس :

- ولكنهم ألقوا القنابل الحارقة على القمة بالفعل .

أشار مدير المخابرات الحربية بيده ، قائلاً :

- رجال الاستطلاع أشاروا إلى أن قصف قمة ممر (متلا) بدأ فى التاسعة تقريبًا ، والساعة الآن الحادية عشرة ، دون أن يتعرَّض الممر الآخر إلى قصف مماثل ، ولو أن أمر رجالنا قد انكشف ، عند ممر (متلا) ، فقد كان من الطبيعى أن يسارع الإسرائيليون بفحص الممر الآخر ..

قال مدير المخابرات العامة فى حماس :

- أنا أتفق معك تمامًا فى هذا .

أدار إليه الرئيس عينين متسائلتين ، فتابع فى سرعة :

- فى رأيى أنها مبادرة فردية من (عمتاى) ، فذلك الرجل عنيد ومتشكك إلى أقصى حد ، وما دام عاجزًا عن تفسير حادث سقوط الهليوكوبتر ، فسيبذل قصارى جهده ، لتحطيم أى احتمال آخر .

قال الرئيس فى توتر :

- ربما يعنى هذا أن خطتنا يمكن أن تستمر بالتوقيت نفسه ، وأن الرجال فى الممرين الآخرين بخير ، ولكنه يعنى فى الوقت ذاته أن الأولاد فى ممر (متلا) يواجهون جحيمًا ونحن عاجزون عن إنقاذهم ، قبل ثلاث ساعات من الآن .

شدَّ قائد الصاعقة قامته ، وقال فى حزم :

- إنهم أسود يا سيادة الرئيس ، ولن يهزمهم (باراك) هذا .

قال الرئيس فى صرامة :

- الحرب لا تُبنى على أحلام ونوايا حسنة يا رجل .

أجابه قائد الصاعقة بحزم أكبر :

- إننى أعرف رجالى يا سيادة الرئيس .. حتى ولو تحوَّل الجبل إلى كتلة من النار ، فهم سيصمدون ، وسيقاتلون ، حتى آخر رجل ، وآخر قطرة دم .

أومأ الرئيس برأسه ، وغمغم :

- أتعشَّم هذا .. أتعشَّم هذا .

وعاد يناقش تفاصيل الساعات الأخيرة ، قبل لحظة الصفر ، وعقله يحمل ذلك التساؤل المخيف ..

ترى هل سيصمد الرجال هناك بحقّ ؟!

هل ؟!

* * *

٥ ـ المواجهة ..

ازدرد (قدرى) لعابه ، وتطلَّع إلى المدير بنظرة صامتة عجيبة ، جعلت هذا الأخير يبتسم فى هدوء ، قائلاً :

ـ أنت تشعر بالجوع .. أليس كذلك ؟!

هزَّ (قدرى) رأسه ، وبدا لحظة وكأنه عاجز عن النطق ، قبل أن يجيب بصوت شاحب مبحوح :

ـ بالتأكيد .

ثم تردَّد لحظة ، فاتسعت ابتسامة المدير ، وهو يلتقط سمَّاعة الهاتف ، قائلاً :

ـ لا تقلق .. إننى أعرف ذوقك جيِّدًا .

وضغط رقمًا داخليًا ، ثم قال :

ـ صباح الخير يا (سعيد) .. إنه أنا .. المدير .. كلاَّ .. لم أنصرف بعد .. اسمع يا (سعيد) .. أنا هنا فى حجرة الأرشيف .. سأنتقل مع السيِّد (قدرى) إلى مكتبى .. أريد وجبة كاملة .. نعم .. وجبة كاملة للسيِّد (قدرى) .. آه .. بالضبط .. أعلم أنها الرابعة والنصف صباحًا ، ولكن من الضرورى أن تكون الوجبة دسمة وساخنة .

وغمز بعينه لـ (قدرى) ، مضيفًا :

ـ وضخمة .

ثم أعاد سمَّاعة الهاتف إلى موضعها ، ونهض ، قائلاً :

ـ هيا .. سيحضرون وجبتك إلى مكتبى .

تبعه (قدرى) فى صمت ، وكل ذرة فى كيانه توحى بالتوتر والتردُّد ، وما إن دلفا إلى مكتب المدير ، حتى هتف نائبه الأوَّل فى دهشة :

ـ سيادة المدير ؟! لقد تصوَّرت أن ...

قاطعه المدير بإشارة من يده ، قائلاً :

ـ لقد قرَّرت قضاء بعض الوقت مع السيِّد (قدرى) .

ابتسم نائبه وهو يلملم أوراقه ، ويقول :

ـ أراهن على أنها مغامرة أخرى ، من مغامرات سيادة العميد (أدهم) .

ضحك المدير ، وقال :

ـ بالضبط .

أما (قدرى) ، فقد ابتسم ابتسامة باهتة ، وظلَّ صامتًا ، حتى انصرف نائب المدير لينهى أعماله فى مكتبه ، وأحضر (سعيد) الوجبة الضخمة ، التى احتلَّت المائدة بأكملها .

ولكن العجيب أنه لم يمدّ إصبعًا واحدًا إلى الطعام ، وهو يبدو شاردًا متوترًا ، فمال المدير نحوه ، متسائلاً :

- ماذا يقلقك ؟!

تردَّد (قدرى) بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن اندفع ، قائلاً :

- ربما تكون عملية (عنق الزجاجة) هذه من أهم وأخطر العمليات ، التى قام بها (أدهم) ، ولكن الواقع أننى قد طالعت عمليات أخرى ، كانت أكثر حيوية وإثارة من هذه العملية بكثير .

ابتسم المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويقول :

- أمر طبيعى .

هتف (قدرى) فى دهشة :

- طبيعى ؟!

أشار المدير بيده ، قائلاً :

- بالتأكيد .

ثم عاد يميل نحوه ، مضيفًا :

- لأن دور (أدهم) فى العملية لم يبدأ بعد .

فغر (قدرى) فاه بذهول حقيقى ، وهو يقول :

- لم يبدأ ؟!

هزَّ المدير رأسه ، وقال :

- لو أن الأمور سارت على ما يرام ، لما بدأ ذلك الجزء من العملية أبدًا ، فلقد كان من المفترض أن يكمن الرجال فى الجبل فحسب ، حتى يحين موعد بدء القتال ، وهذا ما حدث فى الممر الآخر ، ولكن مصرع جندى الصاعقة ، فى أثناء الهبوط ، وكشف الدورية الجوية لوجوده ، كانا السبب فى تطوُّر الأمر عند ممر (متلا) ، على هذا النحو العنيف .

سأله (قدرى) فى لهفة :

- ولكن الرجال أكملوا مهمتهم بنجاح ، أليس كذلك ؟!

تردَّد المدير هذه المرة ، فتساءل (قدرى) فى قلق :

- هل ...

قاطعه المدير بإشارة من يده ، وقال :

- الأمور لا تسير أبدًا بهذه البساطة يا رجل ، فضابط (موساد) عنيف شرس ، مثل (باراك عمتاى) ، لم يكن ليلقى الأمر عن ذهنه أبدًا ، خاصة وأنه قد عثر على الدليل ، الذى كان ينشده .

جفَّ حلق (قدرى) بشدة ، حتى إن صيحته أتت مختنقة ناقصة ، وهو يهتف :

- عثر عليه ؟! كيف ؟!

مطَّ المدير شفتيه ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ كان بارعًا بحق .

ثم عاد يروى القصة ..

بكل تفاصيلها ..

★ ★ ★

ألقى (باراك) نظرة عصبية على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة ظهرًا ، وهو يقول فى غضب :

ـ لماذا استغرقوا كل هذا الوقت لإعداد الفيلم ؟!

أجابه مساعده ، محاولاً تهدئته :

ـ تحميض وإظهار الشرائح الملوَّنة يحتاج إلى وقت أطول يا أدون (باراك) .

غمغم (باراك) فى حنق :

ـ يا للسخافة !

لم يكد ينهى عبارته ، حتى دلف مسئول العرض إلى القاعة ، وهو يقول فى صوت يحمل رنة حنق :

ـ الفيلم جاهز للعرض يا أدون (باراك) .

كان من الواضح أن الكل يشعر بالسخط ، لاضطرارهم إلى العمل يوم عيد (كيبور) ، ولكن (باراك) لم يبال بسخطهم وغضبهم ، وهو يشير للرجل ، قائلاً فى صرامة :

ـ هيا .. ابدأ .

ضغط الرجل زر فانوس العرض ، وهو يطفئ الأنوار ، فانعقد حاجبا (باراك) ، وهو يتابع الصور ، التى يتم عرضها على الشاشة ، بكل اهتمام وتركيز ..

كانت كلها تنقل صور ذلك الجحيم ، الذى أشعله على قمة الممر ..

وألسنة اللهب المتطايرة ..

والصخور المشتعلة بالنابالم ..

و ...

« أعد الصورة السابقة .. »

هتف (باراك) بالعبارة ، وهو يقفز من مقعده ، ويلوِّح بذراعه فى قوة ، فمطَّ مسئول العرض شفتيه فى حنق ، وأعاد عرض الصورة السابقة .

وبمنتهى الاهتمام ، اقترب (باراك) من الصورة ، التى تملأ الجدار كله ، وراح يفحصها بمنتهى الدقة ، قبل أن يشير إلى مجموعة من الصخور عند المنحدر ، متسائلاً فى عصبية :



وبمنتهى الاهتمام ، اقترب (باراك) من الصورة التى تملأ الجدار كله ، وراح يفحصها بمنتهى الدقة ، قبل أن يشير إلى مجموعة من الصخور عند المنحدر ..

ـ هل يمكنك تكبير هذا الجزء ؟!

أجابه الرجل فى ضجر :

ـ بالتأكيد .

عدَّل وضع الشريحة ، واستخدم عدسة أخرى ، لتكبير ذلك الجزء خمس مرات ، ليملأ بدوره الشاشة كلها .

وتألَّقت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

ـ كنت أعلم هذا .. كنت واثقًا من أننى على حق .

سأله مساعده فى لهفة :

ـ ماذا وجدت يا أدون (باراك) ؟!

أشار (باراك) إلى إحدى الصخور ، قائلاً :

ـ هل ترى هذه البقعة الحمراء ؟!

سأله مساعده فى حيرة :

ـ وما هى ؟!

عادت عينا (باراك) تتألقان ، وهو يجيب :

ـ دم .. دم طازج .

حدَّق مساعده فى تلك البقعة الحمراء ، قبل أن يغمغم فى تردُّد :

ـ ربما كانت بقعة دم بالفعل ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة وجود مصريين هناك .. من أدرانا أنه ليس مجرد حيوان صحراوى .. و ..

قاطعه (باراك) فى حدة :

ـ حيوان صحراوى على القمة ؟! أى سبب سخيف هذا ، الذى يدفع حيوانًا عاديًا إلى بلوغ قمة كهذه ؟!

ثم اختطف سمَّاعة الهاتف ، وقال فى صرامة :

ـ هنا (باراك) .. (باراك عمتاى) .. أريد التحدُّث إلى الجنرال (دان) فورًا .

واحتقن وجهه ، وهو يصرخ بغضب هادر :

ـ نعم .. أعلم أنه عيد (كيبور) ، وأن الجنرال فى إجازة ، ولكننى أريد منك أن تبحث عنه فى أى مكان .. أخبره أن الأمر عاجل .. عاجل وخطير إلى أقصى حد .. هل تفهم ؟!

ثم أنهى المحادثة فى عنف ، وعيناه تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

خبت النيران أو كادت ، على قمة الممر ، بعد أن أغرقت الرجال الصائمين فى عرق غزير ، ورفعت حرارة أجسادهم إلى حد لا يطاق ..

وفى خفة ، اتجه (أدهم) إلى المقدَّم (راشد) ، وقال :

ـ إنها الثانية عشرة والنصف .. أعتقد أنهم لن يعودوا مرة أخرى .

غمغم المقدَّم (راشد) فى ألم :

ـ أتعشَّم هذا .

وعضَّ على شفتيه ، فى محاولة لكتمان آلام جراحه ، وهو يقول :

ـ أتعشَّم ألا يكون الرفاق قد واجهوا ظروفًا مماثلة ، عند ممر (الجدى) ، فلقد فقدنا سبعة عشر رجلاً ، ولدينا ستة مصابون ، ولم يبدأ الاشتباك الفعلى بعد .

قال (أدهم) ، وهو يجفف عرقه الغزير :

ـ سوء حظ لا أكثر .. من كان يتوقَّع أن يلقى مقاتل صاعقة محترف مثل (منير) مصرعه ، فى هبوط كهذا .

تنهَّد المقدَّم ، قائلاً :

- إنه قدره .. أنا أريد وأنت تريد ، والله (سبحانه وتعالى) يفعل ما يريد .

غمغم (أدهم) فى خشوع :

- ونعم بالله .

ألقى المقدّم (راشد) نظرة على ساعته ، وهو يقول :

- الثانية عشرة والربع .. بقيت ساعة ونصف الساعة ، على لحظة الاشتباك .. فلندع الله (سبحانه وتعالى) ألا يصرَ الإسرائيليون على العودة إلى هنا ، قبل الوقت المطلوب .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يفكّر بضع لحظات ، قبل أن يغمغم ، وكأنه يحدّث نفسه :

- ولكن ماذا لو عادوا ؟!

هزّ المقدّم (راشد) رأسه ، قائلاً :

- لست أرغب حتى فى التفكير فى هذا الاحتمال .

تابع (أدهم) ، وكأنه لم يسمعه :

- المشكلة أن يبلغوا القيادة ، بأية وسيلة كانت .

سأله المقدّم (راشد) فى قلق :

- ملازم (أدهم) .. ما الذى يدور فى ذهنك بالضبط ؟!

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً فى حزم :

- أن أمنعهم من الاتصال بالقيادة ، حتى لو بدأ القتال مبكرًا .

سأله المقدّم (راشد) بقلق أكثر :

- كيف ؟!

شرد بصر (أدهم) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول بحزم أكبر :

- لدى خطة .

ثم أضاف فى صرامة :

- مجنونة .

وعندما شرح خطته ، أدرك المقدّم (راشد) أنها مجنونة .. مجنونة بحق ..

* * *

احتقن وجه (باراك) بشدة ، وهو يهتف بمنتهى الغضب :

- ماذا تعنى بأنك لم تجد الجنرال (دان) ؟! أليس من المفترض أن يترك عنوانه للطوارئ ؟! ماذا لو اندلعت الحرب فجأة ؟! واصل البحث عنه فى كل مكان ممكن ، وإلا فسأضطر للاتصال بوزير الدفاع نفسه .. هل تفهم ؟!

أنهى الاتصال بعنف ، وهو يقول عصبية :

- ماذا يحدث بالضبط ؟! أمن (إسرائيل) كلها مهدَّد بعملية عسكرية مصرية ، ولا أجد مسئولاً واحدًا لأبلغه بالأمر ! أية حماقة هذه ؟!

حاول مساعده تهدئته ، وهو يقول فى حذر :

- ربما لأن آخر التقارير الأمنية ، الواردة من كل الجهات ، وحتى من جواسيسنا داخل (مصر) ، تؤكِّد أن المصريين لا يفكرون مجرَّد تفكير ، فى خوض القتال ، بأية صورة من الصور .. إن جنودهم ما زالوا يسبحون فى القناة ، ويصطادون أسماكها ، حتى هذه اللحظة .. بل إنهم لم يرتدوا خوذاتهم بعد ، وأن تعلم القاعدة .. « من السهل أن تدرك أن المصريين قد أعلنوا حالة الطوارئ ، عندما يرتدى جنودهم خوذاتهم »(*).

انعقد حاجبا (باراك) ، وهو يقول :

- فليذهب كل هذا إلى الجحيم .. المصريون هناك ، على قمة الممر ، ولن تقنعنى قوة فى الأرض بعكس هذا .

(*) العبارة تُنسب لوزير الدفاع الإسرائيلى (حينذاك) (موشى ديان) ، ولقد نطقها ساخرًا ، فى أحد أحاديثه الصحفية ، ولقد التقطتها المخابرات المصرية ، وأدركت منها أسلوب تفكيره ، وصدرت الأوامر لقادة الوحدات ، بألا يرتدى جنودهم خوذاتهم ، إلا قبيل العبور بخمس دقائق فحسب ، ولقد نجحت هذه اللعبة البسيطة فى خداع الإسرائيليين ، فى اللحظات الأخيرة .

ثم لوَّح بذراعه كلها ، صائحًا فى غضب هادر :

- لا بد أن يفعلوا شيئًا .. لا بد أن يتحركوا ، قبل فوات الأوان .

وانعقد حاجباه بعض الوقت ، فى غضب أكثر ، قبل أن يلتقط سمَّاعة الهاتف ، ويطلب رقمًا خاصًّا ، ثم يقول فى صرامة :

- هنا (باراك) .. قل لى يا رجل : كم هليوكوبتر لدينا للطوارئ ؟! كلاَّ .. دعك من طائرات الدورية .. كم لدينا من تلك المزوَّدة بالصواريخ ؟!

صمت لحظة ، ليستمع إلى محدِّثه ، قبل أن يقول :

- خمس طائرات .. عظيم .. أخبر الطيارين أن يستعدوا .. وتأكَّد من أن كل هليوكوبتر كاملة الذخيرة والعتاد .

أنهى المحادثة ، فسأله مساعده بقلق شديد :

- ما الذى تنوى فعله بالضبط يا أدون (باراك) ؟!

التقى حاجبا (باراك) على نحو مخيف ، وهو يجيب بمنتهى الصرامة :

- ما دام الكل يتعامل مع الموقف بهذا الاستهتار السخيف ، فلم يعد أمامى سوى أن أتصدَّى له وحدى .. وبمنتهى العنف .

اتسعت عينا المساعد فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ رباه ! هل تنوى أن ..

قاطعه (باراك) بكل صرامة الدنيا :

ـ نعم يا رجل .. أنوى أن أشن حربًا .

وعاد حاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يضيف :

ـ حرب (باراك) الخاصة .

★ ★ ★

تثاءب قائد فرقة حراسة ممر (متلا) فى ضجر ، وهو يلقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى تمام الواحدة ظهرًا ، وهو يغمغم :

ـ يا له من ظلم ! الكل ينعم بالعيد ، ونحن نقضى اليوم هنا ، وسط الصخور . والرمال .

ثم أطلق من صدره زفرة حارة ، متابعًا :

ـ ورجل (الموساد) المجنون هذا ، يرغب فى إشعال الموقف أكثر وأكثر ، وكأنما لا يجد ما يشغل به يومه .

ضحك أركان حرب الفرقة ، وهو يقول :

ـ هكذا رجال (الموساد) دائمًا ، يصنعون من الحبة قبة .

مطُّ قائد الفرقة شفتيه ، مغمغمًا :

ـ بالضبط !

ثم عاد يتثاءب ، متابعًا :

ـ المهم أن يبتعد عنا .. ليست لدى الرغبة فى القيام بأية نشاطات اليوم .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم صبرى) يهبط الجبل ، فى خفة ونشاط وسرعة ..

كان يعلم أن انكشاف أمر قوات الصاعقة ، على قمة الممر ، يعنى أن تفقد (مصر) أهم عامل من عوامل الفوز فى الحروب ..

عامل المفاجأة ..

ولكن الموقف كله ارتبك منذ البداية ..

وصار من المحتم إيجاد صيغة جديدة للتعامل ..

بعضهم يشكّ فى وجود المصريين ..

ويجاهد لإثبات هذا ..

ولم يعد هناك مفرَ من المواجهة ..

قبل ساعة الصفر ..

ولكن بشروط جديدة ..

ألا تكون هناك فرصة لإبلاغ القيادة ..

أية فرصة ..

والوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا ، هى تحطيم كل وسائل الاتصال ..

بلا استثناء ..

كان يجازف بضياع كل شىء ، وهو يهبط الجبل هكذا ..

فى وضح النهار ..

لذا فقد كان أوّل ماينبغى فعله ، هو إخفاء هويته المصرية ..

وانتحال هوية أخرى ، تتيح له حرية أكبر فى الحركة ، فى مكان يسيطر عليه العدو بالكامل ..

هوية إسرائيلية ..

لذا فقد هبط بمنتهى الحذر ، حتى أصبح على ارتفاع عشرة أمتار من الرمال ..

وعندما توقّف ، عند بروز صخرى ضخم ، على ذلك الارتفاع ، كان يمكنه أن يرى بوضوح مجموعة من خمسة رجال ، مع مدفع ميدانى ضخم ..

كان يعلم بوجود وحدة دفاع جوى ، بالقرب من القمة ، على الجانب الآخر ، ولكنه لم يكن يدرك وجود تلك الوحدة الدفاعية المحدودة ، فى ذلك الموقع ..

وهذا سبب اختياره له بالتحديد ..

ولكن يبدو أنه تعديل دفاعى فى اللحظات الأخيرة ، بمناسبة عيد الغفران ..

ولدقيقة كاملة ، أخفى نفسه بين صخور ذلك البروز ، وهو يعيد دراسة الموقف ..

لم يعد هناك مجال للتراجع الآن ..

فالوقت يمضى ..

والخطر يتضاعف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

لذا ، فقد حسم (أدهم) أمره بسرعة ..

واتخذ قراره ..

ووثب ..

ومن المؤكَّد أنها كانت مفاجأة عنيفة للإسرائيليين الخمسة ..

ففجأة ، وبلا مقدمات ، وجدوا ضابط صاعقة مصريًا يهبط بينهم ..

وقبل حتى أن يفغر أحدهم فاه ذاهلاً ، كان الملازم أوّل (أدهم) قد انطلق كالصاعقة الحقيقية ..

« لا تقتل أبدًا يا (أدهم) ، إلا مضطرًا .. » .

« وإلا بالحق .. » .

تردّدت عبارات والده فى عقله ، فى تلك اللحظات ..

ولكنها الحرب ..

وفى الحروب ، يكون القتل دومًا ضرورة ..

لذا ، فقد استلّ خنجره ، وانقضّ به كالليث ، على حاملى المدافع الآليةَ الخمسة ..

لا ينبغى أن تنطلق رصاصة واحدة ..

هذا كل ما يعنيه ..

فالرصاصة لن تعنى هزيمته وحده ..

بل ربما تعنى هزيمة وطن بأكمله ..

وطن يقاتل من أجل الحق ..

والعدل ..

والحرية ..

ومن المؤكّد أن ما فعله لم يرق له أبدًا ..

والدليل أنه لم يذكر التفاصيل قط فى تقريره ..

كل ما أشار إليه هو أن القتال قد استغرق نصف دقيقة فحسب ..

وبعدها كان عليه أن يستبدل بزيه القتالى المصرى ، زىّ أحد الجنود الإسرائيليين الخمسة ، الذين لقوا مصرعهم ..

ولكن فجأة ، وقبل أن يفعل ، التقطت أذناه هدير مراوح الهليوكوبتر ..

وبحركةٍ حادة ، ارتفع بصره إلى أعلى ..

ورأى الطائرات ..

خمس طائرات هليوكوبتر مقاتلة ، انقضّت على قمة الممر ..

وفى آن واحد تقريبًا ، انطلقت صواريخها نحوها ..

وانتفض قلب (أدهم) فى عنف ، مع دوى الانفجارات العنيفة ..

وتطايرت صخور القمة ..

وتناثرت معها الدماء ..

نهر من دماء الشهداء والضحايا ..

وبكل لوعته وغضبه ، صرخ (أدهم) :

ـ لا !!!

وضاعت صرخته وسط ذلك الجحيم ، الذى ينسف القمة بلا رحمة ..

وبلا هوادة ..

وفى حجرته ، صرخ قائد كتيبة حراسة النفق فى ارتياع :

ـ ماذا حدث ؟! هل شنَّ المصريون الحرب ؟!

أجابه أحد ضباطه ، فى توتر بلا حدود :

ـ بل هى طائراتنا يا سيِّدى .

احتقن وجه القائد ، وهو يصرخ :

ـ أهو ذلك المأفون مرة أخرى ؟!

أجابه ضابط آخر فى عصبية :

ـ إنه هو .. لقد أبلغنا ، منذ دقيقةً واحدة ، أنه سينسف القمة كلها .

صرخ القائد فى غضب هادر :

ـ يا للجنون ! يا للجنون !

ثم اندفع نحو حجرة الاتصالات ، مستطردًا بكل غضب الدنيا :

ـ سأبلغ القيادة جنونه هذا ... لا بد أن يدفع الثمن .. لا بد .

اقتحم الحجرة بمنتهى العنف ، وأزاح ضابط الاتصال جانبًا فى غلظة ، وهو يلتقط مسماع جهاز الاتصال ، ويضغط الأزرار فى عصبية ، هاتفًا :

ـ من كتيبة (متلا) إلى القيادة .. من كتيبة (متلا) إلى القيادة .. حوِّل .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت قائده ، وهو يقول فى توتر :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟! لماذا هذا الاتصال العصبى ؟!

صاح الرجل فى حدة :

ـ الجحيم اشتعل من حولنا بلا مبرر ، فى يوم العيد .. ضابط (موساد) مجنون يقصف القمة بالصواريخ ، بوساطة خمس طائرات هليوكوبتر حربية .

هتف قائده فى ذهول :

ـ ضابط (موساد) فعل هذا ؟!

صاح الرجل ، محاولاً الارتفاع بصوته عن دوى القنابل والانفجارات :

ـ نعم .. ضابط (موساد) مجنون ، يصرّ على أن المصريين هناك ، على القمة .

صمت قائده بضع لحظات ، قبل أن يقول فى غضب :

ـ سأعمل فورًا على إيقاف هذه المهزلة .

أنهى قائد كتيبة الحراسة المحادثة ، وهو يهتف بصوت مرتفع ، والانفجارات تتوالى عند القمة :

ـ يا له من جنون ! من يمكن أن يصدِّق أن المصريين هنا ؟!

أتاه صوت صارم غاضب ، يقول :

ـ أنا !

استدار القائد وضابطه ، وكل جنود حجرة الاتصالات إلى مصدر الصوت ، وما إن وقع بصرهم على (أدهم) ، بزى الصاعقة المصرى ، حتى ارتفعت فوهات مدافعهم نحوه بحركة آلية ، وقائدهم يصرخ ، بكل ذهول الدنيا :

ـ مستحيل !

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، كان الجميع قد ضغطوا أزندة مدافعهم الآلية ، و ...

ودوت الرصاصات فى المكان ..

بمنتهى العنف .

* * *

٦ ـ المقاتل ..

فغر (قدرى) فاه فى ذهول ، حتى بدا مظهره مضحكًا ، بكل هذا الطعام فى فمه ، فضحك مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ ماذا دهاك :

حاول (قدرى) أن يزدرد ما بفمه ، ولكن قطع اللحم انحشرت فى حلقه ، فاحتقن وجهه بشدة ، وهو يختطف كوبًا من الماء المثلج ، ويلقيه فى جوفه ، ثم يسعل ، ويربت على كرشه ، مغمغمًا :

ـ حمدًا لله .

وازدرد لعابه ، ثم أجاب المدير فى توتر :

ـ ولكن ألا يعنى هذا أن (أدهم) قد بدأ المواجهة ، قبل ساعة الصفر بالفعل ؟!

أومأ المدير برأسه ، قائلاً :

ـ بالطبع .

هتف (قدرى) :

ـ ولكن كيف ؟!

صمت المدير بضع لحظات ، وكأنما يسترجع ذكرى قديمةً ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، ويدس كفيه فى جيب سرواله ، وهو يتطلّع إلى الشفق ، الذى تلوَّن ببوادر الشروق ، ثم قال :

ـ الشىء الوحيد ، الذى يمكنك أن تتأكَّد منه دومًا ، هو أن (أدهم صبرى) رجل يجيد تقدير الأمور والمواقف ، وليس بالرجل الذى يُقدم على أية حماقات غير مدروسة .

غمغم (قدرى) فى تردُّد :

ـ ولكن الأوامر ..

قاطعه المدير :

ـ من أفضل مميزات (أدهم) ، والتى قد يعتبرها بعض التقليديين عيبًا بالغ الخطورة ، هو قدرته على دراسة موقفه ، وتعديل الأوامر الصادرة إليه ، بحيث تتناسب مع متغيرات الأمور ..

وعاد يتطلَّع إلى الشفق ، متابعًا :

ـ ومن المؤكَّد أنه كان يشعر بغضب ومرارة لا حدود لهما ، فى تلك اللحظات الرهيبة ، عندما أدرك أن فرقة الصاعقة كلها لن يمكنها الصمود على القمة ، أو حتى فى الجوانب المنحدرة ، مع قصف رهيب موجَّه كهذا ، وأن الجميع سيلقون حتفهم حتمًا ، قبل أن يبدأ الاشتباك الفعلى .. وكان يدرك فى الوقت ذاته أن هبوطه

لتنفيذ خطته ، هو الذى جنبه المصير ذاته ، وانتخبه ليبقى فى عالم الأحياء .

تمتم (قدرى) مشفقًا :

ـ ياله من موقف !

تابع المدير ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ولكن الشىء الذى كان يدركه أكثر ، هو أن العملية كلها قد أصبحت مسئوليته وحده ، وأن كل ما كان ينبغى أن تقوم به فرقة الصاعق ؛ لتحويل الممر إلى عنق زجاجة ، يصعب على الإسرائيليين تجاوزه ، بأية معدات أو إمدادات ، صار عليه أن يقوم به وحده .. من أجل (مصر) .

هتف (قدرى) مبهورًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

واصل المدير مرة أخرى ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

ـ لأنه يدرك مدى صعوبة .. أو بمعنى أدق استحالة المهمة ، فقد اتخذ قرارًا مصيريًا حاسمًا .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ وبدأ المواجهة مبكرًا ، بأكثر من نصف الساعة ، عن موعدها الفعلى ، المحدَّد من القيادة .

هزَّ (قدرى) رأسه غير مصدِّق ، وتمتم :

ـ يا له من رجل !

ثم تساءل فى قلق شديد :

ـ ولكن ألا يكفى هذا لتنبيه الإسرائيليين لما يحدث ؟!

ابتسم المدير ، وقال :

ـ من الواضح أنه قد أحسن تقدير الموقف ـ حينذاك ـ فقد كانت الانفجارات تصمّ الأذن عند القمة ، وهو داخل حجرة الاتصالات الرئيسية والوحيدة داخل الممر ، ولو أمكنه السيطرة عليها ، سيمنع إبلاغ القيادة لأطول فترة ممكنة ، حتى يحين الموعد الحقيقى .

تساءل (قدرى) بلهفة شديدة :

ـ وهل فعل ؟

صمت المدير مرة أخرى ، قبل أن يهزّ رأسه ، مجيبًا :

ـ لم يكن ذلك بالأمر السهل .

ثم عاد إلى مقعده خلف مكتبه ، وواصل روايته ..

* * *

من المؤكَّد أن الحروب تختلف عما عداها ..

إنها أمر بشع ..

بشع ..

وبشاعته هذه تفوق كل تصوَّراتك بالتأكيد ..

ففى الحروب ، لا توجد حلول وسطية ..

إما أن تقتل ، أو تُقتل ..

لا تساهل ..

لا هوادة ..

ولا رحمة ..

وكل من شارك فى أيةّ حروب يدرك هذا ..

ويدرك أكثر أهمية السلام ..

ففى تلك المواجهة ، داخل حجرة الاتصالات ، فى ممر (متلا) ، لم يكن أمام (أدهم) خيار .

ولا أمام الإسرائيليين أيضًا ..

لذا فقد انطلقت الرصاصات من الجانبين كالمطر ..

وشعر (أدهم) بألم عنيف فى فخذه اليسرى ..

وفى ذراعه اليمنى ..

وأمام عينيه ، تفجَّرت الدماء ، من صدر القائد ، وطار ضابطه من مكانه ، ليرتطم بجهاز اللاسلكى ، ويسقط معه أرضًا ..

وحصدت الرصاصات الأخرى الباقين بلا رحمة ..

وتفجَّرت الدماء ..

أنهار من الدماء ..

وفى الخارج ، وعلى الرغم من دوى الانفجارات ، التقطت آذان الإسرائيليين صوت النيران المتبادلة ..

واندفعوا بكل ذعرهم نحو الحجرة ..

وكان (أدهم) يدرك هذا جيِّدًا ..

فما إن تأكَّد من أن رصاصاته قد أدت مهمتها بنجاح ، حتى أفرغ خزانة كاملة فى جهاز اللاسلكى ، قبل أن يثب خارج الحجرة ، وهو يستبدل بها خزانة أخرى جديدة ..

وليواجه العدو ..

كل جنود العدو ..

ويا له من مشهد !

ضابط صاعقة مصرى واحد ، فى مواجهة ما يقرب من ثلاثين جنديًّا وضابطًا إسرائيليًّا .

ودبابتين ..

وسيلاً من الرصاصات ..

ومن اللحظة الأولى ، كان من الواضح بأن التكافؤ منعدم تمامًا ..

وهذا ما جعل الإسرائيليين أكثر عنفًا وشراسة ..

ولكن (أدهم) كان يتحرَّك على نحو مذهل بحقّ ..

لقد أطلق النار من مدفعه الآلى بلا هوادة ، وهو يثب جانبًا ، ويدور حول نفسه ، ثم يقفز محتميًا بسيارة (جيب) كبيرة ..

ولكن أكبر الضباط رتبة صرخ ، فى غضب جنونى :

ـ لا تجعلوا شيئًا يعوقكم عن قتل ذلك المصرى .. اسحقوه سحقًا .. اسحقوه بلا رحمة ..

لذا فقد انهالت الرصاصات على الجيب كالمطر ..

ثم انتزع أحد الجنود قنبلة من حزامه ، وألقاها نحوها فى عنف ..

ورأى (أدهم) القنبلة اليدوية تسقط داخل السيارة ..

وأدرك أنها تحتاج إلى خمس ثوان ..

خمس ثوان فحسب ..

ثم يحدث الانفجار ..

وبمبادرة مدهشة ، دفع جسده إلى الأمام ، واختطف القنبلة ..

ثم ألقاها بكل قوته نحو الإسرائيليين ..

ودوى الانفجار ..

خمسة من الإسرائيليين لقوا مصرعهم فى الحال ..

والباقون تضاعف غضبهم وجنونهم ..

وبأمر مباشر من أحد ضباطهم ، انتزع خمسة جنود قنابلهم ..

وألقوها دفعة واحدة نحو الجيب ..

ولم يكن هناك مفر من الفرار ..

وبكل قوته ، وعلى الرغم من كل إصاباته ، انطلق (أدهم) يعدو ، وهو يطلق رصاصاته كالمطر ، ويطيح بثلاثة آخرين ..

وصرخ الضابط الإسرائيلى :

ـ الحقوا به .. اقتلوه .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، انفجرت القنابل النووية الخمس فى آن واحد ..

ودوى انفجار هائل ..

انفجار اقتلع (أدهم) من مكانه ، وأطاح به خمسة أمتار كاملة ، قبل أن يسقط أرضًا فى عنف ، ويتدحرج وسط عاصفة من الغبار واللهب ..

وفى الظروف العادية ، كان هذا يكفى ، ليصاب الشخص ، أى شخص ، بارتجاج عنيف ، يزلزل كيانه ، ويشتت تفكيره ، ويفقده القدرة على التحكم فى تصرفاته واتزانه ، لدقيقتين أو ثلاث على الأقل .

ولكن هذا لا ينطبق بالتأكيد على ضابط صاعقة مصرى ..

فما بالك برجل مثل (أدهم صبرى) ؟!

لقد ارتطم بالأرض فى عنف ، وغرق وسط عاصفة من الرمال واللهب ، إلا أنه وثب واقفًا على قدميه بسرعة البرق ، وانطلق يعدو متخفيًا بالغبار ، نحو أقرب مكان إليه ، وصوت الضابط الإسرائيلى يبلغ أذنيه ، وهو يصرخ كالمجنون :

ـ أطلقوا النار .. لا تمنحوه لحظة واحدة .. اقتلوا هذا المصرى ، أو أذبحكم جميعًا بلا رحمة ..

لم يكن الجنود يرون (أدهم) ، وسط الغبار والنيران ، إلا أن صيحة ضابطهم جعلتهم يطلقون النيران فى عنف وشراسة لا مثيل لهما ..

وفى كل الاتجاهات ..

وعلى الرغم من كل هذا ، ومن الغبار وألسنة اللهب والرصاصات ، كان (أدهم) يعدو محتميًا بسواترهم الترابية ، وهو يعرف طريقه جيدًا ..

فقبل حتى أن تبدأ مهمتهم ، كان رجال المخابرات الحربية والاستطلاع قد صنعوا نموذجًا كاملاً للممر ، بكل وحداته ، ومركباته ، وثكناته ..

وكان (أدهم) يحفظ ذلك النموذج عن ظهر قلب ..

وهذا ما دفعه نحو ذلك الهدف بالتحديد ..

وقبل أن ينقشع الغبار ، ويتمكَّن الإسرائيليون من رؤيته ، كان قد بلغ الهدف بالفعل ..

وبوثبة أخيرة ، التقطت يده مزلاجه ، وجذبه فى سرعة ، ثم دفع جسده داخل المكان ، وأغلق الباب فى عنف ..

وبحركة آلية ، استدارت فوهات المدافع الآلية كلها نحو المكان ، و ...

« توقفوا .. »

انطلقت صرخة الضابط الإسرائيلى قوية ، هادرة ، صارمة ، فتجمَّدت سبَّابات الجنود على أزندة مدافعهم ، والتفتوا إليه فى توتر ، فأشار بيده فى عصبية ، قائلاً :

ـ رصاصة واحدة فى هذا المكان ، ونحترق جميعًا .

انتبه الجنود ، فى تلك اللحظة فقط ، إلى طبيعة ذلك المكان ، الذى انتقاه (أدهم) ..

كان مخزن الوقود ، الخاص باحتياجات الكتيبة كلها .. وبخاصة الدبابتين ..

ولثوان ، ساد مزيج من الصمت والتوتر فى المكان ، خاصة وأن طائرات الهليوكوبتر ، التى يقودها (باراك) ، كانت قد انتهت من قصفها ، وعادت أدراجها ، بعد أن سحقت القمة سحقًا ، دون أن تشعر أو تدرك ما يدور تحتها ، فى قلب الممر ..

وفى صوت خافت ، وكأنما يخشى أن يفسد ذلك الصمت ، تمتم عريف الكتيبة :

ـ هل نهاجم ؟!

هتف به الضابط الوحيد المتبقى ، فى حدة :

ـ كلاَّ أيها الغبى .

وصمت لحظة ، وهو يتطلَّع إلى مخزن الوقود فى عصبية شديدة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ أحضر مكبِّرًا صوتيًا .

أسرع العريف لتنفيذ الأمر ، فى حين التفت الضابط إلى بعض جنوده ، قائلاً بلهجة آمرة يغلب عليها التوتر :

ـ انقلوا السواتر الرملية إلى هنا ، وأخبر قائدى طاقمى الدبابتين أننى أريدهما فورًا .

نطق أوامره ، ورفع فوهة مدفعه الآلى ، وهو يواصل التطلُّع إلى مخزن الوقود فى توتر بالغ ، ثم لم يلبث أن نقل بصره إلى حجرة اللاسلكى ، وغمغم فى حنق :

ـ إذن فقد كان ضابط (الموساد) على حق .. المصريون هنا .

نطقها فى نفس اللحظة ، التى جلس فيها (أدهم) على أرضية المخزن بين براميل الوقود ، ووضع مدفعه الآلى إلى جواره ، وهو يعيد دراسة موقفه ..

من حسن حظه أن الإسرائيليين لم يتصوَّروا قط أن المصريين سيبدءون الحرب يومًا ..

ولهذا لم يحاولوا دراسة موقع مخزن الوقود جيِّدًا ..

كان مجرَّد حجرة واسعة من الصاج ، تستند إلى جدار الممر ، ولها باب معدنى بسيط ..

ولكنها تتوسَّط الممر تمامًا ..

وتحوى كل احتياجاتهم من الوقود ..

بلا استثناء ..

وهذا يعنى أنه ، فى غياب الاتصالات اللاسلكية ، لا يمكنهم أبدًا أن يجازفوا بخسارة الوقود أيضًا ، وإلا فلن تكون لديهم أية وسيلة للحركة ، أو الاتصال بالقيادة ، وإبلاغها ما حدث ..

لقد قدَّر الأمر كله فى ثوان معدودة ، وهو ينتخب هذا المكان بالذات .

ربما لأنه كان الأمل الوحيد ، فى أن يظلَّ على قيد الحياة ، فى مواجهة عنيفة شرسة كهذه ..

وفى حذر وألم ، راح يفحص إصاباته ..

كان مصابًا بأربع رصاصات على الأقل ، وهناك شظية مغروسة فى فخذه أيضًا ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، مزَّق جزءًا من قميصه ، وراح يضمد به جراحه ، وهو يتساءل فى قلق ، تُرى ما الذى سيفعله الإسرائيليون ؟!

وكيف سيواجهون الموقف ؟!

من المؤكَّد أنهم لن يقفوا ساكنين ..

وأنهم سيجدون وسيلة لاختراق المكان ..

إنها مسألة وقت فحسب ..

وهذا كل ما يحتاج إليه ..

الوقت ..

عضَّ شفتيه فى ألم ، وهو يجذب تلك الشظية من فخذه ، ويضمِّد موضعها بقطعة من قميصه ..



عضّ شفتيه فى ألم ، وهو يجذب تلك الشظية من فخذه ، ويضمِّد موضعها بقطعة من قميصه ..

ولكن ألمه الأكبر كان له مبعث آخر ..

الفشل ..

لقد اضطرته الظروف إلى بدء الاشتباك قبل موعده ..

ولكن الفرقة كلها لقيت حتفها حتمًا ، عند القمة ..

ولم يعد هناك سواه ..

وها هو ذا حبيس داخل مخزن وقود ، ولا يدرى ما الذى سيكون عليه مصيره ، بعد ساعة واحدة من الآن ..

وهذا يعنى أن عملية (عنق الزجاجة) قد فشلت ..

والإمدادات الإسرائيلية ستعبر إلى الغرب ..

وتقاتل ..

وتقتل ..

مرة أخرى عضّ شفتيه ، وهو يلتقط مدفعه الآلى ، ويدير عينيه فى براميل الوقود من حوله ..

ربما كان هذا هو الأمل الأخير ..

براميل الوقود ..

لو أنه نجح فى إحداث انفجار قوى ، قد يؤدى هذا إلى انهيار الصخور ، وانسداد الممر ..

ربما أمكنه هذا ..

صحيح أن الانفجار سيقتله حتمًا ..

ولكنه سيهب الحياة للعديدين ..

لكل من يمكن أن يلقى مصرعه ، بسبب الإمدادات الإسرائيلية ، التى ستعبر الممر ..

هو سيموت ..

ولكن (مصر) ستحيا ..

وهذا كل ما يبتغيه ..

وعلى الرغم من إصاباته وآلامه ، نهض من مكانه ، وانتزع من حزامه كل ما يحمله من قنابل يدوية ..

وفى مهارة خبير ، راح يوزِّعها فى المكان ، و ...

« استسلم أيها المصرى .. »

ارتفع صوت الضابط الإسرائيلى ، عبر مكبِّر صوت قوى ، وهو يتابع فى غضب صارم :

ـ لا توجد أمامك وسيلة واحدة للفرار .

تمتم (أدهم) ، وهو يضع قنبلته الأخيرة :

ـ أعلم هذا أيها الوغد .

قال الضابط بنفس الصرامة :

ـ لو أنك تتصوَّر أن تحطيم وحدة اللاسلكى سيعزلنا عن القيادة فأنت واهم .. لقد أرسلت إحدى الدبابتين إلى الشرق ، مع نداء لاسلكى متواصل .. صحيح أن مدى إرسال أجهزتها محدود ،

ولكن إحدى الوحدات فى المؤخرة ستلتقط النداء حتمًا ، خلال عشر دقائق أو ربع الساعة على الأكثر ، وستبلغ القيادة .

انعقد حاجبا (أدهم) فى توتر ، مع هذه المعلومة ، وراح يتحرَّك بسرعة أكبر ، ويدفع أحد براميل الوقود نحو المدخل ، والضابط يواصل :

ـ إننى أمنحك فرصة أخيرة للاستسلام ، وإلا فستقوم الدبابة الثانية بنسف المخزن كله .

تمتم (أدهم) فى توتر أكثر :

ـ هل يمكنكم أن تفعلوا حقًّا ؟!

خُيِّل إليه أن الضابط قد سمع سؤاله ، وهو يقول ، عبر مكبِّر الصوت :

ـ ولو أنك تتصوَّر أننا لن نطلق النار ، خشية انفجار المخزن وحدوث انهيار ، فأنت واهم .. أوَّل أمر درسته القيادة ، وهى تضع الوقود فى هذا الموضع بالتحديد ، هو سلامته على الممر ، فى حالة حدوث أى أمر غير طبيعى .. حتى لو انفجر المخزن مرتين ، لن تنهار صخرة واحدة ..

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، مع هذا القول ..

هل يعنى ذلك الإسرائيلى حقًّا ما قاله ؟!

هل تمت دراسة الموقع بالفعل ؟!

لو أن هذا صحيح ، فستكون هذه اللحظات هى أسوأ لحظات حياته ..

لحظات سيلقى خلالها مصرعه ، دون أن يمنح وطنه شيئًا .

سيموت دون ثمن ..

دون أن يحقق هدفه ..

وهدف العملية كلها ..

عملية (عنق الزجاجة) ..

وفى أعماقه ، تصاعد مزيج عجيب من الغضب والمرارة ، والضابط الإسرائيلى يتابع فى صرامة ، حملت هذه المرة رنة من الشماتة ..

ـ كل الأفراد يحتمون خلف سواتر رملية قوية .. صحيح أن انفجار المخزن سيحيل المكان إلى ما يشبه الجحيم .. ولكننا سننجو .. أنت وحدك ستلقى مصرعك كجرذ حقير ..

وتصاعدت نبرة الشماتة ، مع استطرادته :

ـ إنك لم تسأل ماذا ستفعل الدبابة الثانية ، بعد أن خرجت الأولى لإبلاغ القيادة ؟! إنها هنا .. أمام المخزن مباشرة ، وتصوِّب مدفعها إليه .

انعقد حاجبا (أدهم) أكثر ، وقبضت أصابعه على مدفعه فى قوة ..

إذن فقد اتخذوا قرارهم بالتضحية بمخزن الوقود ، لو لزم الأمر ..

وهو الآن لم يواجه جنودًا ..

بل دبابة ..

مقاتل واحد ، فى مواجهة دبابة ..

دبابة إسرائيلية ..

وبكل صرامة الدنيا ، قال الضابط الإسرائيلى ، عبر مكبر الصوت :

ـ مرة أخرى أؤكِّد لك أنه لا أمل لك قط فى النجاة .. لا يوجد أدنى أمل .. ونحن نمنحك عشر ثوان فحسب للاستسلام ، وإلا فسننسف كل شىء .. عشر .. تسع .. ثمان ..

قبض (أدهم) على مدفعه بقوة أكثر وفى أعماقه يتفجَّر بركان عنيف ..

لن يستسلم أبدًا ..

لن يمنح العدو فرصة للتفوُّق ، فى هذا اليوم ..

ولن يموت بلا ثمن ..

سيقاتل حتى آخر رمق ..

وآخر نقطة دم ..

وبكل حزم وحسم وصرامة الدنيا ، رفع فوهة مدفعه ، والضابط الإسرائيلى يواصل العد التنازلى :

ـ سبع .. ست .. خمس ..

والتقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وقرأ الشهادتين ، و ...

واندفع إلى الأمام ..

وبقفزة واحدة ، أصبح خارج المخزن ..

وارتطم بصره بفوهة الدبَّابة الإسرائيلية ، المصوَّبة نحوه مباشرة ..

ورفع (أدهم) مدفعه ..
وصرخ الضابط الإسرائيلى :

ـ اضرب .

ودوى الانفجار ..

فى قلب الممر .

★ ★ ★

٧ ـ ساعة الصفر ..

بلغ توتر الأعصاب ذروته ، فى مركز العمليات الرئيسى فى (القاهرة) ، مع اقتراب ساعة الصفر ، ولحظة المواجهة الكبرى ، بين الجيش المصرى والجيش الإسرائيلى ، الذى يدَّعى أنه جيش أسطورى لا يُقهر ، وأنه قد وضع أمام المصريين أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ..

خط (بارليف) ..

ومع العد التنازلى ، الذى راح يتسارع على نحوٍ مخيف ، مال الرئيس (السادات) على وزير الحربية ، متسائلاً فى توتر :

ـ هل أطلق قائد الطيران إشارة البدء ؟!

أجابه الوزير فى حزم :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. اللواء (حسنى مبارك) رجل عبقرى بحق فى مضماره ، وستجد أن طائراتنا ستشقَّ المجال الجوى كصاعقة مخيفة ، فى الوقت المناسب بالضبط .

أومأ الرئيس (السادات) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ أعلم هذا .. أعلم أنه عبقرى بحق ، حتى إننى أفكِّر فى ..

بتر عبارته بغتة ، وهو يغرق فى تفكير عميق مباغت ، جعل وزير الحربية يسأله :

ـ فى ماذا يا سيادة الرئيس ؟

واصل الرئيس صمته وشروده لحظة ، ثم لم يلبث أن لوَّح بيده ، قائلاً :

ـ لا شىء .. لا شىء .. مجرَّد فكرة ، لم يحن أوان تنفيذها بعد .

ثم عاد يسأل فى اهتمام متوتر :

ـ ولكن أما من أخبار جديدة ، بشأن أولادنا هناك .. عند ممر (متلا) ؟!

تنهَّد الوزير ، وهو يجيب :

ـ الأوامر لديهم ألا يقوموا بأية اتصالات ، إلا مع الاشتباك المباشر ، ولكن تقارير المراقبة والاستطلاع غير مطمئنة على الإطلاق .. ومحيِّرة أيضًا ..

سأله الرئيس فى قلق متضاعف :

ـ كيف ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

ـ على الرغم من أن الأمور هادئة ومستقرة تمامًا ، عند الممر الآخر ، وكل شىء يسير وفقًا للخطة ، إلا أن ممر (متلا) بالتحديد يتعرَّض لما يفوق احتمال الرجال .. لقد تم قصف قمته بالصواريخ فى عنف ، ولربع ساعة متصلة ، على نحو نخشى معه أن نكون قد فقدنا فرقتنا هناك تمامًا .

ارتفع حاجبا الرئيس بدهشة مذعورة ، وهو يقول :

ـ يا رب العالمين !! ولكن هذا سيصنع ثغرة رهيبة فى الخطة يا رجل .

هزَّ الوزير رأسه ، قائلاً :

ـ لسنا نعرف الموقف بالتحديد يا سيادة الرئيس ، ولكن من الواضح أن كل دقيقة تمضى ، هى جحيم حقيقى ، بالنسبة للرجال هناك ..

ألقى الرئيس نظرة على ساعته ، وهو يغمغم :

ـ ما زالت أمامهم خمس وثلاثون دقيقة .. خمس وثلاثون دقيقة فى قلب الجحيم .

غمغم الوزير :

ـ كل الحروب جحيم يا سيادة الرئيس .

غرق الرئيس فى أفكاره بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلتفت إليه فى حزم ، وهو يقول :

ـ الأوامر تمنع اتصالهم بنا ، ولكنها لا تمنع اتصالنا بهم .. أليس كذلك ؟!

أجابه الوزير فى اهتمام :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .

انعقد حاجبا الرئيس فى حزم أكبر ، وهو يقول :

ـ عظيم .. امنحهم إذن خمس دقائق أخرى ، ثم أرسل إليهم عبارة واحدة ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف بكل الحزم :

ـ على بركة اللّه .

نطقها ، وكل حرف منها يتفجَّر بالقوة ..

كل حرف ..

* * *

حمل صوت (دان زورسكى) ، قائد أمن منطقة (سيناء) ، كل غضب وثورة الدنيا ، وهو يصرخ فى (باراك) ، عبر أسلاك الهاتف :

ـ ما الذى فعلته أيها المجنون ؟! أية حماقة أقدمت عليها اليوم ؟! لماذا تصرَّ على إفساد العيد بالنسبة للكل ؟! الجنرال

(موشى) نفسه غاضب بشدة ، بسبب ما فعلته بقمة الممر ، الكل تصوَّر أن الحرب قد اشتعلت بالفعل ..

قال (باراك) فى صرامة :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .

صرخ الجنرال (زورسكى) :

ـ أى وقت أيها الأحمق المأفون ؟! هل تتصوَّر أن أحدًا سيصدق ذلك الهوس المجنون ؟! الكل يعلم أن المصريين لن يحاربوا أبدًا .. ليس فى هذه الأيام على الأقل .. كل ما لدينا من معلومات يؤكد هذا ، ولن يمكنك ادعاء العكس ، لتبرير ذلك التجاوز الرهيب .. اسمع يا (باراك) .. لقد تجاوزت كل النظم والقوانين العسكرية ، وارتكبت أخطاء بشعة عنيفة ، ولقد أمرت بتحويلك إلى محاكمة عاجلة ، و ...

قاطعه (باراك) بغتة :

ـ مهلاً .

تفجَّرت دهشة الجنرال ، لهذا الأسلوب الفظ ، وتضاعفت دهشته ، عندما ألقى (باراك) سمَّاعة الهاتف ، وبدا صوته من بعيد ، وهو يهتف :

ـ ماذا هناك ؟!

احتقن وجه الجنرال غضبًا ، وصاح فى توتر :

ـ (باراك) .. أين أنت أيها الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، قاطعه (باراك) مرة أخرى ، وهو يختطف سمّاعة الهاتف ، صائحًا فى عصبية :

ـ كنت على حق .. لقد كنت على حق .

بُهِتَ الجنرال للقول ، وتساءل فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟!

صاح به (باراك) ، فى لهجة لا تخلو من الشماتة :

ـ الوحدة التاسعة والثلاثون التقطت نداءً عاجلاً ، من دبابة آتية من ممر (متلا) .

سأله الجنرال فى توتر أكثر :

ـ ماذا تع ...

وللمرة الثالثة ، ودون مراعاة لأية قواعد عسكرية ، قاطعه (باراك) هاتفًا :

ـ إنهم هناك .. المصريون هناك .

وكان هذا يكفى ..

يكفى لتنتفض كل ذرة فى كيان الجنرال (زورسكى) .. وبمنتهى العنف[*] ..

* * *

كان الانفجار قويًا بحق ..

ولكن ليس بالقوة التى تصوَّرها (أدهم) ..

ولا فى الاتجاه المفترض أيضًا ..

ففى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها الضابط الإسرائيلى هتافه ، انطلق صاروخ من أعلى ، وأصاب برج الدبابة ، التى تصوِّب مدفعها إلى (أدهم) ..

ودوى الانفجار ..

انفجار أطاح ببرج الدبابة فى عنف ، وأصاب الإسرائيليين بصدمة عنيفة ، وخاصة عندما أعقبت الانفجار صرخات قوية ، انطلقت من حناجر جنود صاعقة مصريين ، يهبطون من القمة ، بوساطة جبال قوية ، بقيادة المقدَّم (راشد) ..

(*) أكّد المؤرخ العسكرى ، الأستاذ (جمال حماد) ، أن خبر استعداد (مصر) لشن حرب شاملة ، قد تسرّب إلى الإسرائيليين ، قبيل ساعة الصفر ، وأن القيادة الإسرائيلية قد حاولت اتخاذ الإجراءات اللازمة للتصدّى للأمر ، ولكن المصريين قدّموا موعد الهجوم ، لإحباط المحاولة الإسرائيلية (حقيقة) .

ستة جنود ، هم كل ما تبقَّى من الفرقة كلها ..

ستة أسود ، انهالت رصاصاتهم على الإسرائيليين كالمطـر ، قبل حتى أن يهبطوا إلى الأرض ..

كانت الإصابات تمـلأ أجسـادهم ، والدمـاء تغرق زيهـم ، ولكنهم قاتلوا كألف ألف رجل .

ولأن رصاصاتهم انطلقت من أعلى ، فقد تجاوزت السواتر الرملية القوية ، وراحت تحصد الإسرائيليين حصدًا ..

وبكل حماس وفرحة الدنيا ، هتف (أدهم) :

ـ مرحى .

ثم اشترك فى القتال ..

وببسالة مدهشة ، وثب يتجاوز الدبابـة المحطمـة ، وهـو يطلق رصاصات مدفعه الآلى بلا هوادة ..

وسقط واحد من رجال الصاعقة ..

ثم ثان ..

وأصيب ثالث إصابة خطيرة ..

ولكن كل قطرة من دمائهم الذكية الغالية ، كان لها ثمن غـال للغاية ..

لقد حصدوا الإسرائيليين ، وأبادوهم عن آخرهم .

فيما عدا ضابطهم ..

وبذعر لا محدود ، ألقـى الضابط الإسرائيلى مدفعه الآلـى ، ورفع ذراعيه فوق رأسه ، هاتفًا :

ـ لا تطلقوا النار .. إننى أستسلم .

رفع أحد جنود الصاعقة مدفعه نحوه ، ولكن (أدهم) هتف به فى صرامة :

ـ إياك أن تفعلها .. نحن لا نقتل الأسرى والعزّل .

اندفع الجندى ، لإلقاء القبض على الضـابط الإسرائيلى ، فى حين أسرع (أدهم) إلى المقدَّم (راشد) هاتفًا :

ـ ربّاه ! لقد وصلتم فى الوقت المناسب تمامًا .. حمدًا للّه على سلامتكم .. لقد تصوَّرت أن ...

قاطعه المقدَّم (راشد) ، وهو يستند إلى حطام الدبابة فى ألم :

ـ لقد سحقونا بالفعل .

وعضَّ على شفتيه ، وهـو يشير إلى الرجـال الثلاثة الذين تبقوا .. مضيفًا :

ـ هؤلاء كل من تبقى ، من فرقة صاعقة .

غمغم (أدهم) :

ـ لقد أدوا واجبهم .

هزَّ المقدَّم (راشد) رأسه ، مغمغمًا فى مرارة :

ـ ولكن المواجهة الحقيقية لم تبدأ بعد ، ولم يتبق منا ما يكفى لمواجهة فريق من الإسرائيليين .

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله(*)..

تنهَّد المقدَّم (راشد) ، متمتمًا :

ـ ونعمَ بالله (العلى القدير) ..

ثم عاد يهزّ رأسه ، مضيفًا :

ـ ولكن بحالتنا هذه ، لست أعتقد أن أمامنا فرصة كبيرة ..

انتبه (أدهم) ، فى هذه اللحظة فقط ، أن ساق المقدَّم (راشد) مصابة بشدَّة ، فهتف :

ـ يا إلهى ! إنك تحتاج إلى إسعاف عاجل يا سيادة المقدَّم .

هزَّ المقدم (راشد) رأسه ، قائلاً :

ـ لم تعد هناك فرصة لهذا .. القيادة أبلغتنا منذ قليل ، أن نبدأ القتال فورًا .

(★) القرآن الكريم : سورة البقرة ـ الآية ٢٤٩م .

هتف (أدهم) بسعادة غامرة :

ـ حقًا ؟!

ثم عاد يتساءل فى لهفة :

ـ ولكن .. أيعنى هذا أن جهاز اللاسلكى قد نجا ؟!

أومأ المقدَّم (راشد) برأسه ، وهو يعض شفته ، محاولاً السيطرة على آلامه ، مجيبًا :

ـ حمدًا لله .

قال (أدهم) فى سرعة :

ـ عظيم .. لا بد أن نبلغهم إذن أننا هنا ، وأننا قد سيطرنا على الممر بالفعل .

التقط المقدَّم (راشد) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ لقد أبدنا كتيبة الحراسة ، أما السيطرة على الممر ، فأمر مختلف تمامًا .

صمت (أدهم) بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ كل ما علينا هو أن نؤدى واجبنا ، و ...

« هراء .. »

انطلقت الصيحة فى مقت ، من بين شفتى الضابط الإسرائيلى ، فالتفت إليه الكل فى غضب ، جعله يرتبك ، قائلاً :

ـ القيادة لن تسمح لكم أبدًا بالسيطرة على ممر حيوى كهذا .. إنها ستحشد كل قواتها لاختراقه ، مهما كلفها هذا ، وأنتم مجرَّد شرذمة مصابة ، واثنان منكم يحتضران .

رمقه (أدهم) بنظرة نارية ، فتابع فى عصبية :

ـ كيف تصوَّرتم أن بإمكانكم فعل هذا ؟!

مال (أدهم) نحوه ، قائلاً فى صرامة :

ـ أنتم لم تتصوَّروا أن نهزمكم .. أليس كذلك ؟!

قال الضابط الإسرائيلى فى حدة :

ـ هذا أمر مختلف .. لقد باغتمونا ، دون أن نستعد ، ولكن القيادة تعلم الآن بوجودكم ، وستواجهكم بمنتهى الشراسة .

احتقن وجه المقدَّم (راشد) ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ قل لى أيها الوغد : أما زال غروركم يصوِّر لكم أنكم الأقوى ؟! هل صدقتم خرافة جيش (إسرائيل) الذى لا يقهر ؟!

انتفض جسد الإسرائيلى ، وهو يهتف :

ـ جيشنا حقًّا لا يُقهر .. وسنثبت لكم هذا مرة أخرى أيها العرب ، كما لقناكم الدرس ، فى يونيو ١٩٦٧م .

احتقن وجه المقدَّم (راشد) أكثر ، وهو يهتف :

ـ أيها الـ ...

قبل أن يتم هتافه ، دار رأسه فى عنف ، وأظلمت الدنيا بغتة أمام عينيه ، و ...

وهوى ..

وبصرخة لوعة ، وثب (أدهم) يلتقطه بين ذراعيه ، قبل أن يسقط أرضًا ، وهو يهتف :

ـ ربَّاه ! لقد فقد الوعى ..

قال الإسرائيلى فى عصبية :

ـ أهذا هو الجيش ، الذى ستحاربوننا به ؟!

صاح به (أدهم) فى صرامة :

ـ اصمت .

ولكن الإسرائيلى تابع بلهجة شامتة :

ـ ففقدانه الوعى من حسن حظه ، فلن يشعر بما ستفعله قواتنا ، عندما تأتى لإرسالكم إلى الجحيم ، و ...

قبل أن يتم عبارته المستفزة ، دار (أدهم) على عقبيه فجأة ، وهوى على فكه بلكمة منه كالقنبلة ، انتزعته من مكانه ، ودفعته ثلاثة أمتار كاملة إلى الخلف ، قبل أن يسقط فاقد الوعى ..

وفى صرامة ، غمغم أحد الجنود الثلاثة المتبقين :

ـ أحسنت يا سيِّدى .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو ينحنى ، ليفحص إصابة المقدَّم (راشد) ، قبل أن يغمغم بقلق بالغ :

ـ ربَّاه ! الأمر أخطر مما كنت أتصوَّر .

ونهض مفكِّرًا فى عمق ، فسأله أحد الجنود :

ـ هل تعتقد أننا نستطيع التصدى لقواتهم وحدنا يا سيِّدى ؟!

استدار إليه (أدهم) فى صمت ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ ربما أمكننا أن نعطلهم بعض الوقت .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف فى شىء من الشرود :

ـ وهذا كل ما تنشده القيادة .

غمغم رجل آخر :

ـ لن يكون هذا سهلاً .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ ولن يكون مستحيلاً .

ثم استدار يواجه الجنود الثلاثة ، متابعًا :

ـ اسمعونى جيِّدًا يا رجال .. الموقف ليس بسيطًا بالتأكيد .. وما دامت القيادة قد أعلنت إشعال الموقف ، فهذا يعنى أن الإسرائيليين قد أدركوا حتمًا ما يواجههم ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى تنقضَّ قواتهم على الممرات ، بكل شراسة الدنيا ؛ لأن من يسيطر على الممرات سيحقق تفوقًا كبيرًا ، فى الساعات الأولى للحرب .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يستطرد :

ـ من المؤكَّد أننا لن نتجاوز هذا الأمر ، وكل قوانين العقل والمنطق تؤكِّد أننا سنلقى حتفنا حتمًا ، ولكننا سنكون قد أدينا واجبنا ، ومنعنا إمدادات العدو من العبور .

وشدَّ قامته ، مضيفًا فى حزم :

ـ هل يمكنكم مواجهة هذا ؟!

تبادل الجنود الثلاثة نظرة صامتة ، ثم شدَّ كل منهم قامته بدوره ، وضرب كعبيه ببعضهما ، وارتفعت أيديهم بالتحية العسكرية فى آن واحد ، وحناجرهم تنطق عبارة حملت أصواتهم وحزمهم وحماسهم :

ـ كلنا رهن إشارة (مصر) .

أومأ (أدهم) برأسه ، وتطلَّع إليهم بنظرة احترام وتقدير ، وهو يقول :

ـ هذا ما توقعته منكم .

ثم وضع يده على كتف أحدهم ، متابعًا :

ـ (صالح) .. لدى مهمة خاصة لك .

هتف جندى الصاعقة فى حماس :

ـ أمرك يا سيادة الملازم .

تطلَّع إليه (أدهم) لحظة فى صمت ، ثم قال بلهجة آمرة :

ـ إننى ألمح سيارة جيب ، نجت من القتال هنا .. احمل إليها المقدَّم (راشد) ، وزميلك المصاب ، وانطلق بهما نحو الغرب .

ارتفع حاجبا الجندى فى دهشة مستنكرة ، وهو يهتف :

ـ نحو الغرب ؟! هل تطلب منى التراجع ، وحرمان نفسى من القتال والاستشهاد فى سبيل الله والوطن يا سيِّدى ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ زميلك والمقدَّم (راشد) بحاجة إلى إسعاف عاجل .. ولو سارت الأمور على ما يُرام ، ونجحت قواتنا فى عبور قناة (السويس) ، واقتحام خط (بارليف) ، ستجد نفسك أمام قوات مصرية ، فى مساء اليوم على الأرجح ، لو اتخذت مسارًا يتفادى وحدات الجيش الإسرائيلى ، الذى سينشغل حتمًا فى القتال .

غمغم الجندى :

ـ ولكن يا سيِّدى ..

قاطعه (أدهم) فى لهجة صارمة آمرة :

ـ أطع الأوامر أيها الجندى .

عضَّ الجندى شفتيه ، والمرارة تعتصر قلبه ؛ لأنه سيضطر إلى التخلِّى عن المواجهة ، التى حلم بها طويلاً ، فتابع (أدهم) بابتسامة شاحبة ، وهو يضع يده على كتفه مرة أخرى :

ـ ومن يدرى ؟! ربما التقينا ، بعد نهاية الحرب ، هناك .. فى (القاهرة) .

قاوم الجندى دموعه فى صعوبة ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، ولكنه لم يكد يخفض يده ، حتَّى وجد نفسه يندفع نحو (أدهم) ، ويحتضنه فى قوة ، هاتفًا من وسط دموعه ، التى عجزت عن الاختباء خلف عينيه :

ـ وفقكم اللَّه يا سيادة الملازم .. وفقكم اللَّه .

ربَّت (أدهم) على ظهره ، قائلاً :

ـ سنلتقى بإذن اللَّه .

تراجع الجندى ، وأدى التحية مرة أخرى بقوة أكبر ، فابتسم (أدهم) ، وأشار إلى الضابط الإسرائيلى الفاقد الوعى ، قائلاً :

ـ قَيّد هذا الوغد واحمله معك .. ولا تنس أن تكَمم فمه ، فهو أسير مهم ، وربما ينقذ وجوده معكم حياتكم ، إذا ما حدثت مواجهة ، بينك وبين الإسرائيليين .

قال الجندى فى حزم :

ـ أمرك يا سيادة الملازم .

وصافح زميليه ، الذين سيبقيان مع (أدهم) لحماية الممر ، وتعاون معهما لنقل المقدَّم (راشد) ، والجندى المصاب ، والضابط الأسير إلى السيارة (الجيب) ، التى تم ملء خزانها بالكامل بالوقود ، ثم انطلق لتنفيذ الأمر .

وفى صمت ، تابعه (أدهم) والجنديان بأبصارهم ، حتى اختفى ، ثم التفت هو إلى الرجلين ، وهو يقول فى حزم :

ـ والآن أيها الزميلان ، دعونا نستعد للمواجهة .

أدى الجنديان التحية العسكرية فى قوة ، وهما يهتفان :

ـ أمرك يا سيادة الملازم .

نطقا عبارتهما ، وعقلاهما يتساءلان فى قلق حقيقى : ترى هل يمكن لثلاثتهم أن يتصدوا بالفعل للقوات الإسرائيلية ، وأن يمنعوا الإمدادات من عبور الممر ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

هتف ضابط إسرائيلى بالعبارة فى ارتياع ، وهو يعدو عبر ممرات مبنى أمن الممرات ، فاستوقفه (باراك عمتاى) فى ثورة ، وهو يمسك كتفيه فى قوة ، هاتفاً :

ـ مادا تقول يا رجل ؟!

انتفض الضابط من فرط الانفعال ، وهو يهتف :

ـ المصريون أشعلوا الحرب .. أسراب مخيفة من طائراتهم عبرت القناة ، على طول خط المواجهة ، فى لحظة واحدة بالضبط ، وبتوقيت دقيق إلى حد مذهل ، وقصفت كل مطاراتنا وبطاريات مدافعنا فى قلب (سيناء) ، وجنودهم يعبرون القناة الآن .. آلاف منهم يعبرونها ، والمراقبون فى خط (بارليف) يقولون إن المشهد مخيف للغاية .

اتسعت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

ـ يعبرون القناة ؟! الآن ؟! فى وضح النهار ؟!

لوَّح الضابط بيده ، هاتفاً :

ـ إنه كابوس .. كابوس .

انعقد حاجبا (باراك) فى شدَّة ، وهو يهتف :

ـ وماذا عن أنابيب النابالم ؟! المفترض أن تحيل سطح القناة إلى جحيم ، وتسحق تسعين فى المائة من موجة الهجوم الأولى .

هزّ الضابط رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ أنابيب النابالم لم تعمل .. الرجال أطلقوها ، فور بدء العبور ، ولكنها لم تعمل .. يبدو أن المصريين قد ..

قاطعه (باراك) فى غضب :

ـ المصريون لن ينتصروا علينا .. حتى لو تمكنوا من عبور القناة ، وتجاوز خط (بارليف) ، وهذا ما أشك فى حدوثه ، فسترسل القيادة كل قواتها إلى هناك ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه على نحو مخيف ، وهو يهتف بغضب هادر ، ومقت بلا حدود :

ـ الممرات .

هتف الضابط :

ـ آه .. هل بلغتك الأخبار؟! قوات الصاعقة المصرية تقاتل كالوحوش فى الممرات .. من الواضح أنهم يحاولون منع أية إمدادات ، من بلوغ خط المواجهة .

صاح (باراك) فى حنق :

ـ الأغبياء ! لماذا لم يصدقنى أحد ؟! لماذا ؟!

ثم أمسك ذراع الضابط بمنتهى القوة ، متابعًا فى صرامة :

ـ ولكننى لن أنتظر ردود أفعالهم البطيئة ، وقراراتهم المترهلة .. أراهن على أن الارتباك قد ساد القيادة ، فور سماعهم الخبر ، وهذا يعنى أنه من المحتم أن أتخذ القرارات وحدى .

سأله الضابط مرتاعًا :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ أنوى أن أجمع كل القوات الخاصة ، التى يمكننى جمعها ، مع طائرات الهليوكوبتر المقاتلة الخمس ، وأنطلق إلى أكبر نقطة ضعف ، فى خطة المصريين كلها .

غمغم الضابط فى دهشة :

ـ نقطة ضعف ؟!

أشار (باراك) إلى صدره ، قائلاً :

ـ نقطة الضعف ، التى صنعتها أنا ، عندما نسفت قمة ممر (متلا) ، قبل أن يدرك أحد الجهلاء ما يحدث .

ثم التفت إلى الخريطة ، متابعًا :

ـ إننى أعرف رجال الصاعقة المصريين جيدًا .. سيقاتلون

كالوحوش عند الممرين ، ولكن عددهم سيكون أقل بكثير عند ممر (متلا) ، بعدما فعلته بهم ، دون أن أدرى ..

ووضع سبَّابته عند موضع ممر (متلا) على الخريطة ، مضيفًا ، بكل مقت وصرامة الدنيا :

ـ وهنا سأضرب ضربتى .

قالها ، وعيناه تتألقان على نحو عجيب ..

ومخيف ..

للغاية .

★ ★ ★



٨ ـ معزوفة الممر ..

انتشر نشاط جم ، فى كل شبر من مركز العمليات الرئيسى للمعركة فى (القاهرة) ، وراح قادة أفرع الجيش المختلفة يراجعون التقارير الواردة من جبهة القتال لحظة فلحظة ، واتسعت ابتسامة رئيس الجمهورية عن آخرها ، وهو يستمع إلى تقرير قائد القوات الجوية ، قبل أن يقول :

ـ عظيم يا سيادة اللواء .. عظيم .. الضربة الجوية حقَّقت نتائجها بأفضل مما يكون .. لقد سحقت وحدات الدفاع الجوى ، وبطاريات المدفعية المتقدِّمة ، ومطارات العدو فى (سيناء) ، وأمنت لأولادنا عبور قناة (السويس) ، بأقل خسائر ممكنة ..

تبادل قائد القوات الجوية نظرة متردِّدة مع وزير الحربية ، قبل أن يشدّ قامته ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيادة الرئيس ، لست أرغب فى إفساد فرحتك ، ولكن هناك خبر ..

قاطعه الرئيس (السادات) فى توتّر :

ـ أى خبر ؟! هل فشلت إحدى الطلعات الجوية ؟!

هزّ قائد القوات الجوية ، رأسه نفيًا ، وقال :

ـ طلعاتنا كلها حققت أهدافها يا سيادة الرئيس ، ولكن ..

هتف الرئيس فى توتر أكثر :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

أجابه الوزير هذه المرّة فى تردُّد :

ـ إنه خبر يتعلّق بـ (عاطف) يا سيادة الرئيس .. الطيار المقاتل (عاطف السادات) ، شقيق سيادتكم .

امتقع وجه الرئيس ، وهو يتساءل :

ـ هل .. هل ..

لم يستطع إكمال عبارته ، فغمغم الوزير :

ـ للأسف يا سيادة الرئيس .. الطيار (عاطف السادات) كان أحد نسور الطلعة الجوية الأولى ، ولقد أراد له اللّه (سبحانه وتعالى) الشهادة .

ارتجفت شفتا الرئيس ، وبدا الانفعال واضحًا ، فى وجهه الشاحب ، وعينيه الحزينتين ، اللتين التمعتا بدموع حبيسة ، وهو يشيح بوجهه بضع لحظات ، فى محاولة لمقاومة انفعاله ، فتمتم وزير الحربية :

ـ سيادة الرئيس .. هل تحب أن نتركك وحدك لبعض الوقت ، أم ...

قاطعه الرئيس فى حزم :

ـ كلاً .

ثم شدّ قامته ، وتابع :

ـ (عاطف) رحمه اللّه كان شقيقى الأصغر ، الذى ربيته ، وتعلّقت به منذ طفولته ، وكنت أحبه كواحد من أبنائى .. ولكنه فى النهاية مقاتل مصرى ، واجه كل ما واجه رفاقه ، ولو أن اللّه (سبحانه وتعالى) قد كتب له الشهادة ، فهذا ليس مبررًا لإضاعة دقيقة واحدة ، فى وقت قد تعنى فيه الثوانى الكثير(*).

والتفت إلى الوزير ، يسأله :

ـ هل وصلت أية أخبار من الممرات ؟!

أجابه الوزير فى سرعة :

ـ رجالنا نجحوا فى السيطرة عليها يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس فى اهتمام :

ـ وماذا عن ممر (متلا) ؟!

صمت الوزير لحظة مترددًا ، ثم أجاب :

ـ لم يعد لنا فيه سوى ضابط وجنديين يا سيادة الرئيس .

(*) واقعة حقيقية .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يقول :

ـ ربَاه ! إنها ثغرة بالغة الخطورة .

قال الوزير :

ـ هذا صحيح يا سيادة الرئيس .

ثم استدرك فى سرعة :

ـ ولكنهم سيقاتلون ، حتى آخر قطرة دم .

تنهَّد الرئيس ، قائلاً :

ـ كان اللَّه فى عونهم .. وعوننا .

ثم أشار إليه ، مستطردًا :

ـ سل قائد الصاعقة ما الذى يمكننا أن نفعله من أجلهم .

أومأ الوزير برأسه ، فتنهَّد الرئيس مرة أخرى ، وقال :

وأبلغونى بتقارير العبور لحظة فلحظة .

غمغم الوزير ، وهو ينصرف مع قائد الطيران :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

ظلَّ الرئيس على وقفته ، حتى انصرف الرجلان ، ثم ترك جسده يسقط على مقعده ، وعاد يشيح بوجهه ، مغمغمًا بحزن غامر :

ـ آه يا (عاطف) .

وانحدرت من عينيه دمعة ..

دمعة لم يرها أحد ..

قط ..

* * *

« من أمن الممرات إلى كتيبة حراسة ممر (متلا) .. أجب .. حدِّد : الموقف الحالى .. »

كرَّر (باراك) النداء ثلاث مرات ، وهو يتجه مع طائرات الهليوكوبتر الخمس نحو الممر ، فغمغم الطيار فى خفوت عصبى :

ـ طاقم الدبابة قال إنهم قد فقدوا جهاز الاتصال اللاسلكى منذ البداية .

أجاب (باراك) فى عصبية :

ـ وماذا عن الدبابة الأخرى ؟! ألا تحوى بدورها جهاز اتصال لاسلكى ؟! المفترض أن تكون فى مجال البث الآن .. لماذا لا تستجيب إذن ؟!

تردَّد الطيار لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما كان المصريون قد ...

قاطعه فى غضب :

ـ المصريون .. المصريون .. ماذا أصابكم جميعًا ؟! هل غرقتم فى بحر من الهلع ، لمجرَّد أنهم يحاولون عبور القناة ؟! إنها مجرَّد صحوة كاذبة ، وسترون أننا سنهزمهم شرّ هزيمة ، وسنلقنهم درسًا يعلمهم أن يقبعوا فى بيوتهم ، وألا يحاولوا التصدّى لتوسعاتنا الأمنية قط .

هزّ الطيَّار كتفيه فى توتر ، مغمغمًا :

ـ أتعشم هذا .

رمقه (باراك) بنظرة غاضبة ، ثم عاد يكرِّر النداء ، فى عصبية شديدة :

ـ من الأمن إلى الحراسة .. أجب .

لاح الممر فى تلك اللحظة ، فاندفعت طائرات الهليوكوبتر الخمس نحوه ، والطيَّار يتساءل :

ـ ماذا سنفعل هذه المرة ؟!

أجابه (باراك) فى حدة :

ـ سنقصفهم بالطبع .

سأله الطيار :

ـ نقصف من ؟!

هتف به (باراك) فى غضب :

ـ المصريين بالطبع يا رجل .

أطلق الطيار زفرة متوترة ، وهو يقول :

ـ أين بالضبط ؟! لو أنك كنت محقًّا من البداية ، فهذا يعنى أنهم الآن داخل الممر ، ولن يمكننا قصفهم هناك .

سأله فى حيرة :

ـ لماذا ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لأننا لو فعلنا ، سنهدم جدران الممر فوق رءوسهم ، وسنكون فى الوقت ذاته ، قد سددنا الطريق أمام إمداداتنا ، ولن تغفر لنا القيادة هذا أبدًا .

انعقد حاجبا (باراك) فى عصبية ، أمام هذا المنطق المقنع ، وتراجع فى مقعده بتوتر بالغ ، وهو يعيد دراسة الأمر كله ..

الواقع أنه لم ينتبه إلى هذه النقطة ، وهو يعد العدة للهجوم على المصريين فى ممر (متلا) ..

وهو لايدرى حتى كيف لم ينتبه إليها ..

الطائرات لن تفيد بالفعل ، لو أنهم قد سيطروا على الممر .

ولكنها على الأقل ستحاصرهم هناك ..

وستحمى فرقة القوات الخاصة ، التى تتجه إلى الممر .

القوات الخاصة الإسرائيلية .

فرقة قوامها ستون جنديًا ، المفترض أن تبقى لحماية الخطوط الخلفية .

ولكنه اتخذ قرارًا ، على مسئوليته الخاصة ، بحملها إلى ممر (متلا) ..

وكان هدفه أن يخترق الممر ، بأسرع وأعنف وسيلة ممكنة ، حتى يصنع ثغرة فى ذلك الحاجز ، الذى أقامه المصريون ، يمكن من خلالها تمرير كل الإمدادات اللازمة ، إلى خطوط المواجهة ، فى الوقت المناسب ..

إذن فالقصف بالصواريخ لن يفيد ..

بل على العكس ، سيفسد الهدف الرئيسى للخطة كلها ..

وينسف رغبته فى إثبات تفوّقه أمام الرؤساء ..

لا بد من خطة بديلة سريعة إذن ..

خطة تعتمد على القوات الخاصة ..

وحدها ..

بلغت طائرات الهليوكوبتر الممر ، فى تلك اللحظة ، فسأله الطيار فى قلق :

ـ والآن ماذا ؟!

اعتدل (باراك) ، وكأنما يفيق من حلم عميق ، وقال :

ـ سنبقى نحن هنا ، على أن تعود الطائرات الأربع الأخرى ؛ لالتقاط بعض جنود القوات الخاصة .

سأله الطيار فى دهشة :

ـ لماذا ؟!

أجاب ، وكأنما يتحدَّث إلى نفسه :

ـ ليس من السهل أن نجد مظليين ، فى ظروف سيطر فيها الطيران المصرى على الموقف ، ولكننا نستطيع نقل بعض الجنود ، إلى الجانب الغربى من الممر ، بحيث يمكنهم أن يطبقوا على المصريين داخله من الجانبين ، مع الفريق الذى سيأتى من الشرق .

غمغم الطيار :

ـ خطة أبسط مما ينبغى .

أجابه فى حزم :

ـ وأكثر فعالية مما تتصوَّر .

وصمت لحظة ، ثم استطرد :

ـ وخاصة أنهم أقل عددًا بكثير .. وربما أكثر مما تتصوَّر أيضًا .

قال الطيار فى عصبية :

ـ على الرغم من صعوبة الموقف ، فأنت تتحدَّث عنه ، كما لو كان مجرَّد نزهة .

أجابه فى صرامة :

ـ إنه كذلك .

وتألَّقت عيناه بذلك الشر ، وهو يضيف :

ـ وسترى أننا سنسحق هؤلاء المصريين بلا رحمة .. خلال ساعة واحدة ..

وعاد يسترخى فى مقعده ، مكملاً :

ـ على الأكثر .

وتألَّقت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

احتقن وجه الجنرال (دان زورسكى) فى شدَة ، حتى بدا أشبه بقلب بطيخة ناضجة ، وهو يهتف ، فى وجه أركان حربه :

ـ ماذا تقول ؟! (عمتاى) خرج مع فرقة من القوات الخاصة ، وخمس طائرات هليوكوبتر ، لمهاجمة المصريين عند ممر (متلا) ؟! وما شأن (باراك عمتاى) بأمر كهذا ؟! إننا رجال مخابرات ، ولسنا قادة جيوش .

تردَّد الضابط لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما لا يكون الأمر سيئًا للغاية يا سيِّدى الجنرال .

صرخ الجنرال فى ثورة :

ـ لا يكون ماذا ؟! هل أصابتك عدوى الجنون ، مثل ذلك المأفون ، الذى يتحرَّك بمبادرات فردية ، بعد أن اندلعت الحرب الشاملة بالفعل ؟!

قال الضابط متوترًا :

ـ لقد كان على حق ، عندما قال إن المصريين هناك .

صاح الجنرال :

ـ هذا لا يعنى أنه على حق دائمًا .

مال الضابط نحوه ، قائلاً :

ـ لماذا لا نمنحه الفرصة لـ ..

قاطعه الجنرال فى ثورة :

ـ الفرصة ؟! أية فرصة ؟! إنها ليست مجرَّد حملة هزلية يا رجل .. إنها الحرب .. الحرب .. هل تفهم ؟! الحررررررب .

ابتسم الضابط ابتسامة خبيثة ، وهو يقول :

ـ ربما كان على حق ، فى هذه المرة أيضًا .

صاح الجنرال :

ـ وماذا حتى لو أنه كذلك ؟!

لوَّح الضابط بسبَّابته ووسطاه ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة ، يمكننا أن نربح ، مع الاحتمالين .

حدَّق الجنرال فيه بدهشة عصبية ، وهو يتساءل :

ـ ماذا تعنى ؟!

استعاد الضابط تلك الابتسامة الخبيثة ، وهو يجيب :

ـ أعنى أنه لو كان على حق ، وأمكنه صنع تلك الثغرة ، ونقل الإمدادات إلى الجبهة ، سنقول : إنه قد فعل هذا بأوامر منك يا جنرال ، أما لو فشل ؛ فسنعاقبه بشدَّة ، باعتبارها مبادرة فردية ، قام بها وحده ، دون إبلاغ القيادة .

انعقد حاجبا الجنرال ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يغمغم :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

أومأ ضابط أركان الحرب برأسه ، قائلاً :

ـ بكل تأكيد يا جنرال .

صمت الجنرال فترة أطول ، وهو يدير الأمر فى رأسه بإمعان ، ثم لم يلبث أن ابتَسم فى توتر ، مغمغمًا :

ـ فليكن .. سنمنحه بعض الوقت ، قبل أن نتخذ القرار ..

وعاد يجلس خلف مكتبه ، مضيفًا :

ـ دعه يمضى فى حربه مع المصريين .. وسنرى ..

نعم يا جنرال .. سترى .

الكثير ..

جدًّا ..

* * *

كل شىء بدا هادئًا صامتًا ساكنًا ، على جانبى الممر ..

كل شىء ..

طائرات الهليوكوبتر الإسرائيلية نقلت عشرين جنديًا ، من جنود القوات الخاصة الإسرائيلية ، إلى الجانب الغربى للممر ، حتى يتم اقتحامه من الجانبين فى آن واحد ..

وفى لحظة واحدة تقريبًا ، اقتحم الإسرائيليون الممر ، من الشرق والغرب ..

كانت أسلحتهم مشهورة .. وسبَّاباتهم متحفزة ، وعيونهم متربصة ..

ولكن أحدًا لم يكن هناك ..

وفى حيرة ، اتصل قائد الفرقة الغربية بالهليوكوبتر الرئيسية ، قائلاً :

ـ المكان خال تمامًا .. لا يمكننا رؤية أى شىء من هنا .

سأله (باراك) فى توتر :

ـ وماذا عن رجالنا ؟!

أجابه الرجل ، فى توتر أكثر :

ـ لا أحد .. جنودنا أو جنودهم .. الممر خال تقريبًا ، إلا من بعض براميل الوقود ..

انعقد حاجبا (باراك) فى عصبية ، وهو يضغط قرصًا مستديرًا ، فى مسماع جهاز اللاسلكى ، قائلاً :

ـ من النسر الأم إلى الفرقة الشرقية .. ماذا لديك ؟

أجابه قائد الفرقة الشرقية فى حذر :

ـ من الواضح أن قتالاً عنيفًا قد دار هنا ، والدبابة محطمة البرج ، وقد لقى كل طاقمها مصرعه داخلها ، الجثث عديدة ، بعضها يرتدى الزى العسكرى الإسرائيلى ، ورجلان يرتديان ثياب قوات الصاعقة المصرية ، وهناك بعض براميل الوقود عند المدخل .

هتف (باراك) فى حدة :

ـ براميل الوقود ؟! وماذا تفعل براميل الوقود فـ ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، قبل أن يصرخ بكل قوة الدنيا ، على كل الموجات :

ـ تراجعوا .. تراجعوا بأسرع ما يمكنكم ..

ومع آخر حروف صرختـه ، أطلق (أدهم) ورفيقاه رصاصاتهم ، من مكمنهم بين الصخور ..

ودوى انفجاران رهيبان ..

انفجرت براميل الوقود فى عنف ، وتطايرت منها ألسنة اللهب لمسافات طويلة ، لتغمر مدخلى الممر عن آخرهما ..

وانطلقت صرخات رجال القوات الخاصة الإسرائيليين ، وهم يعدون فى كل مكان ، وقد تحولوا مع الوقود المشتعل إلى كتل من اللهب ، راحت تتساقط فى كل مكان ..



ومع آخر حروف صرخته ، أطلق (أدهم) ورفيقاه رصاصاتهم ، من مكمنهم بين الصخور .. ودوى انفجاران رهيبان !!

ومن داخل الهليوكوبتر ، شاهد (باراك) ذلك المشهد الرهيب ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وكتل اللهب تنتشر فى الصحراء ، فى حين هتف الطيار فى ارتياع :

ـ ربّاه ! لقد خدعهم المصريون ..

عضّ (باراك) بشفتيه فى مرارة وغيظ ، وهو يحصى الأجساد المشتعلة المتساقطة على رمال (سيناء) ، كشعلات تحاول الإبقاء على ضوء الشمس ، التى راحت تسبح نحو الأفق ، فى رحلة المغيب ، مع دوى انفجارات القنابل ، التى كانوا يحملونها فى أحزمتهم ..

ثمانية عشر جنديًا ، من القوات الخاصة الإسرائيلية لقوا حتفهم ، فى محاولة الاختراق الأولى ، وتحوّلوا إلى أشلاء متناثرة مشتعلة ، على رمال (سيناء) ..

كما أن الممر نفسه قد تحوّل ، عند مدخليه ، إلى بحر من اللهب ..

بحر يستحيل اختراقه ، قبل ساعة كاملة على الأقل .

لقد أحسن المصريون اللعبة بحقّ ..

حتى وإن أغضبه وأحنقه هذا ..

ولكن لا ..

لن يستسلم الآن ..

لقد انطلق بهذا الجيش الصغير على مسئوليته الخاصة ..

ولا يمكنه أن يفشل ..

أو ينتظر ..

القيادة فى تل أبيب لن تهدأ ..

ولن تنتظر ..

لا بد أن يحقق نتيجة إيجابية ..

وسريعة ..

مهما كان الثمن ..

وبكل غضب وثورة الموقف ، هتف عبر اللاسلكى :

ـ أريد استطلاع الموقف .. حاولوا الاقتراب من مدخلى الممر، ومعرفةَ ما يدور هناك .

سأله قائد إحدى طائرات الهليوكوبتر :

ـ هل نطلق النار داخل الممر ؟!

هتف الطيار فى توتر :

ـ لن يمكننا احتمال مسئولية انهيار الجدران ، وانسداد الممر، و ...

قاطعه (باراك) بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول لقادة الطائرات الأخرى ، عبر جهاز الاتصال :

ـ استخدموا المدافع الآلية فحسب كبداية .

أتته أصواتهم ، تعلن تلبية الأمر .

وانخفضت طائرات الهليوكوبتر الأربع إلى مدخلى الممر ..

وانطلقت الرصاصات كالمطر ، لتخترق حاجز ألسنة اللهب ، وتنتشر عبر الممر كله بلا استثناء ..

وخلف حطام تلك الدبابة ، بالقرب من المدخل الشرقى للممر ، هتف جندى الصاعقة (إدوارد) :

ـ سيادة الملازم .. هل ستتركهم يغمروننا بنيرانهم هكذا ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ لقد أشعلنا نحن النيران أولاً يا رجل ، وغيظهم يدفعهم إلى ما يفعلونه .

قال (إدوارد) فى توتر :

ـ نيراننا لن تلبث أن تخبو يا سيادة الملازم ، وسنكون مضطرين عندئذ لمواجهتهم .

قال (أدهم) بلهجة آمرة :

- اهدأ واصمت .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الرابعة وعشر دقائق ، وأضاف :

- إنها مسألة وقت .

ثم حمل مدفعًا مضادًا للدبابات على كتفه ، وهو يستطرد فى حزم :

- وإن عاجلاً أو آجلاً ، سيحاولون الاقتراب أكثر .. وعندئذ سنضرب ضربتنا .

قالها ، وهو يراقب الهليوكوبتر، عند المدخل الشرقى ، والتى راحت تنخفض أكثر وأكثر ، حتى يمكن لرصاصاتها أن تحصد كل أثر للحياة داخل الممر ..

وفى هدوء عجيب ، ثبت المدفع على كتفه ، وصوبه إلى الهليوكوبتر فى إحكام ، مضيفًا :

- أرأيت ! ها هى ذى تقترب .

ومع آخر حروف كلمته ، ضغط الزناد ..

وأطلق الصاروخ من المدفع ..

ودوى الانفجار ..

واحدة من طائرات الهليوكوبتر انسحقت سحقًا ، وتناثرت بعض أجزائها فى كل مكان ، قبل أن يهوى الجزء الأكبر من جسمها عند المدخل الشرقى للممر ، وتشتعل فيه النيران ..

وفى حدة ، هتف (باراك) ، عبر جهاز الاتصال :

- تراجعوا .. تراجعوا وانسحبوا فورًا ..

بلغ الهتاف كل أجهزة اللاسلكى فى آن واحد ..

وارتفعت الطائرات كلها فى سرعة ..

فيما عدا واحدة ..

واحدة لم يكتمل ارتفاعها ..

فقد أطلق جندى الصاعقة (محمود) ، الذى يحمى المدخل الغربى نحوها صاروخًا آخر ، أصاب ذيلها مباشرة ، فنسفه فى عنف ، على نحو جعلها تدور حول نفسها فى عنف وقائدها يصرخ :

- هؤلاء الـ ...

وقبل أن تكتمل صرخته ، ارتطمت مروحة طائرته بالرمال ، وتحطمت فى عنف ..

ثم دوى الانفجار الثانى ..

واتسعت عينا (باراك) عن آخرهما فى ارتياع ، والطيار يهتف :

ـ إنهم .. إنهم وحوش بحق ..

صرخ (باراك) :

ـ إنهم مجرَّد ملاعين ، حالفهم الحظ .

ثم انعقد حاجباه فى شدَة ، وهو يتابع بعصبية بالغة :

ـ ولكن من المستحيل أن يكونوا قد نجوا مما فعلته بهم ! مستحيل ! لقد نسفت القمة كلها ، وأحلتها إلى جحيم حقيقى .

تألَّقت عيناه بغتة ، وهو يهتف :

ـ آه .. الجحيم ! كيف لم يخطر هذا ببالى ..

سأله الطيار :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟!

لوَّح (باراك) بيده ، هاتفًا :

ـ النيران هى الحل يا رجل .. هم أشعلوها ، ونحن سنزكيها ونؤجِّجها ، ونغمر بها الممر كله .

سأله الطيار فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟!

تألَّقت عينا (باراك) أكثر ، وهو يقول :

ـ أعنى أنه ما من مخلوق حى ، يمكن أن يحتمل النيران ، وخاصة لو أحاطت به من كل صوب .

ثم التقط مسماع اللاسلكى ، هاتفًا :

ـ من القائد إلى الجميع .. سنهاجم مرة أخرى .. وفى هذه المرة سنتبع ما علمنا إياه المصريون .. سنضرب الممر كله بقنابل النابالم الحارقة .. أريده جحيمًا .. جحيمًا حقيقيًّا .

ثم أنهى الاتصال ، والتفت إلى الطيار ، قائلاً :

ـ هذا لن ينسف الجدران .. أليس كذلك ؟!

قالها ، وهو يبتسم ابتسامة عجيبة ، على الرغم من كل هذه الظروف .

ابتسامة شيطان ..

إسرائيلى .

* * *



٩ـ قلب اللهب ..

التقط الرئيس (السادات) نفسًا عميقًا من غليونه ، ونفث الدخان فى بطء ، قبل أن يتمتم :

ـ أكثر ما أفتقده فى نهار رمضان هو هذا الغليون .

ثم ابتسم ابتسامة باهتة ، مستطردًا :

ـ على الرغم من أنها عادة سيئة للغاية .. الواقع أننى أحاول الإقلاع عنها هذه الأيام .

ومال يسأل وزير الحربية ، فى اهتمام شديد :

ـ ما موقف قواتنا الآن ؟!

بدا الارتياح على وجه الوزير ، وهو يجيب :

ـ أكثر من ممتاز يا سيادة الرئيس .. الواقع أننا لم نتوقَّع أبدًا هذا التفوق المدهش .. لقد عبر رجالنا القناة ، بخسائر تقل بنسبة ثمانين فى المائة ، عن كل ما كان متوقعًا ، وقبل غروب الشمس ، كنا قد اقتحمنا وسيطرنا على سبعين فى المائة من خط (بارليف) ، ولقد قام سلاح المهندسين بإنشاء الجسور والمعابر ، ودباباتنا تتدفَّق الآن على رمال (سيناء) .

أغمض الرئيس عينيه ، متمتمًا :

ـ حمدًا لله .. الحمد والشكر لله (العلى القدير) .

وبدا لحظة وكأنما يتمتم بصلاة قصيرة ، قبل أن يفتح عينيه ، متسائلاً :

ـ وماذا عن السيطرة الجوية ؟!

أجابه قائد الطيران :

ـ شبه تامة يا سيادة الرئيس .. الإسرائيليون يقاومون بشراسة ، ولكن صواريخ (سام ـ ٦) الدفاعية باغتتهم بحق ، كما أن كفاءة نسورنا قد أربكتهم ، عندما تساقطت طائراتهم المتقدِّمة أمامنا .

تنهَّد الرئيس ، متمتمًا :

ـ عظيم .

ثم اعتدل يسأل قائد الصاعقة ، فى اهتمام متزايد :

ـ وماذا عن الممرات ؟!

شدَّ الرجل قامته ، وهو يجيب :

ـ سيطرتنا عليها كاملة ، حتى هذه اللحظة يا سيادة الرئيس .

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى ، متسائلاً :

- وممر (متلا) ؟!

أجابه قائد الصاعقة :

- ما زال تحت سيطرتنا يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس بدهشة تحمل كل نبرات الإعجاب :

- بضابط وجنديين ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، فهزَّ الرئيس رأسه ، مغمغمًا :

- عمار يا (مصر) بأبنائك وشبابك .

قال وزير الحربية :

- كل ما نحتاج إليه منهم هو أربع وعشرون ساعة أخرى يا سيادة الرئيس ، وبعدها لن يضيرنا أن تعبر إمدادات العدو ، فسنكون ، بإذن الله (العزيز القدير) ، قد سيطرنا على الموقف تمامًا .

قال قائد الصاعقة :

- ربما كان هذا ممكنًا ، بالنسبة للممر الآخر ، ولكنه يبدو مستحيلاً تمامًا ، بالنسبة لممر (متلا) ، فالإسرائيليون يدركون حتمًا أنه أضعف نقاطنا ، وسيركزون هجومهم عليه بشدّة .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو ينفث دخان غليونه فى توتر ، قبل أن يعود لسؤال قائد الصاعقة :

- ألا يمكننا أن نفعل شيئًا لتدعيمهم ؟!

هزَّ الرجل رأسه فى أسف ، قائلاً :

- الدعم الجوى مستحيل تمامًا يا سيادة الرئيس ؛ لأن دفاعنا الجوى لم يمتد لمسافة كافية ، لحماية طيران حر ، والممرات ما زالت داخل نطاق العدو .

تساءل الرئيس فى صرامة :

- وماذا عن استعادتهم فيما بعد ؟!

تبادل الرجال نظرة صامتة متوترة ، ثم غمغم قائد الصاعقة :

- فى موقف كهذا ، لست أظنهم ..

قاطعه الرئيس فى صرامة :

- وماذا لو حدث العكس ؟! هل نتخلَّى عنهم ، لمجرَّد أننا لم نفترض إمكانية بقائهم على قيد الحياة ، فى مواجهة كهذه ؟!

تبادل الرجال نظرة أخرى ، ثم تساءل قائد الطيران فى حزم :

- بِمَ تأمر يا سيادة الرئيس ؟!

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى ، وقال بمنتهى الحزم والصرامة :

- أريد منحهم تذكرة عودة .. وبأى ثمن .

ومرة ثالثة ، تبادل القادة نظرة صامتة ..

نظرة حملت الكثير ..

جدًا ..

★ ★ ★

« ماذا سنفعل الآن يا سيادة الملازم ؟! »

نطق الجندى (إدوارد) السؤال فى قلق شديد ، بعد أن خبت النيران ، وساد الظلام الممر كله ، وبدا من الواضح أن القوات الخاصة الإسرائيلية ستشن هجومًا جديدًا حتمًا ، فى أية لحظة ، فأحكم (أدهم) الضمادة حول ساقه ، وهو يجيب فى حزم :

ـ اذهب لتنضمّ إلى (محمود) ، عند المدخل الغربى .

صدم الجواب الجندى ، الذى انتفض هاتفًا :

ـ سيادة الملازم .. إننى لا أخشى الموت فى سبيل الوطن .

أومأ (أدهم) برأسه ، قائلاً :

ـ أعلم هذا يا (إدوارد) .. أعلم هذا بكل تأكيد ، ولكن ما أطلبه منك هو تكنيك قتالى بالدرجة الأولى ، فالإسرائيليون سيهاجموننا حتمًا ، بين لحظة وأخرى ، ونحن لا نمتلك سوى منظار واحد للرؤية الليلية ، سأستخدمه أنا هنا ، لمنعهم من اقتحام المدخل الشرقى ، وعليك أنت و (محمود) أن تبذلوا قصارى جهدكم ، لمنع أية محاولة منهم ، لاختراق المدخل الغربى .

قال (إدوارد) فى توتر :

ـ ولكن الهجوم سيتركز على المدخل الشرقى يا سيادة الملازم .

أومأ برأسه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، وربَّت على كتف الجندى ، قائلاً :

ـ هيا .. اذهب .

قاوم الجندى تأثُّره بضع لحظات ، ثم قال بصوت مختنق :

ـ أعدك ألا ينجحوا فى اختراق المدخل الغربى ، إلا على جثتينا يا سيادة الملازم .

غمغم (أدهم) ، وهو يربت على كتفه مرة أخرى :

ـ اذهب .

تراجع الجندى خطوتين ، ثم أدى التحية العسكرية فى قوة ، ودار على عقبيه ، وانطلق يعدو لتنفيذ الأمر ..

ولحماية المدخل الغربى للمر ..

أما (أدهم) ، فقد التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يلتقط المنظار الخاص بالرؤية الليلية ، ويغمغم :

ـ على بركة الله .

وضع المنظار على عينيه ، ورفع مدفعه الآلى ، وصوَّبه إلى المدخل الشرقى للمر .

وجلس ينتظر ..

وينتظر ..

وينتظر ..

ففى مثل هذه المواقف ، لا يمكنك أن تدرك أبدًا كم مرَّ بك من وقت ..

كل دقيقة تبدو أشبه بدهر كامل .

كل ثانية تحيا وكأنها لا تموت أبدًا ..

والزمن يبدو وكأنه لا يمضى قط ..

ولا يمكنك أن تعلم أبدًا متى تأتى النهاية ..

أو كيف ..

ففى نفس اللحظة ، التى كان فيها ينتظر ، كان (باراك) يهتف بمنتهى الغضب ، عبر جهاز الاتصال :

ـ ماذا تعنى بأنه لا توجد قنابل (نابالم) ؟! إنها حرب ، وينبغى أن تكون كل الأسلحة والذخائر متاحة .

أجابه ضابط التموين والذخيرة بهدوء مستفز :

ـ نعم .. إنها حرب يا أدون (عمتاى) ، ويسعدنى أنك تدرك هذا ، ففى الحروب لا يمكن أن يتم صرف الأسلحة والذخائر بطلبات فردية ، ومن أشخاص لا يحق لهم هذا .

هتف (باراك) مستنكرًا وغاضبًا :

ـ لا يحق لهم هذا ؟!

أجابه الضابط فى صرامة :

ـ نعم يا أدون (عمتاى) .. لا يحق لهم هذا .. أنت ضابط (موساد) ، ولست أحد قادة الجيش أو جنرالاته ، وليس من حقك أن تخوض هذه الحرب الميدانية من الأساس .

صاح (باراك) :

هل تدرك حقيقة الموقف بحقّ يا هذا ؟! المصريون يحتلون الممر كله ، وقواتنا لم تصل بعد ، ولدينا فرصة لسحقهم تمامًا ، وفتح ثغرة كبيرة ، يمكن أن تعبر منها قواتنا ، و ...

قاطعه الضابط بصرامة أكبر :

ـ ليس هذا من شأنى .

كاد (باراك) يجن ، وهو يصرخ :

ـ ليس من شأنك ؟! إنها حرب شاملة يا رجل .. أوّل حرب حقيقية ، بيننا وبين المصريين ، وهذا شأن كل إسرائيلى .. بل كل يهودى على وجه الأرض .

قال الضابط بنفس الصرامة الهادئة المستفزة :

ـ عظيم .. احصل على إذن من القيادة إذن ، باستخدام قنابل النابالم الحارقة ، وسأمنحك منها ما تشاء .

قالها ، ثم أنهى المحادثة فى عنف ..

واحتقن وجه (باراك) فى شدة ، من فرط الغضب والانفعال ، فغمغم الطيار فى حذر خافت :

ـ إنه على حق .

استدار إليه (باراك) فى حدة ، هاتفًا :

ـ على حق ؟!

أجابه الطيار فى سرعة :

ـ بالنسبة لمهامك الرسمية كضابط فى (الموساد) .

التقى حاجبا (باراك) فى شدة ، وهو يلقى نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ اقتربنا من منتصف الليل ، ولم نحسم الأمر بعد ، بسبب غباء وتعنت وارتباك الجميع .

قال الطيار فى توتر :

ـ الأخبار تقول إن المصريين فى (سيناء) بالفعل ، ومازالوا يمتلكون السيطرة على جزء كبير من غربها ، حتى إننى أخشى أن تفاجئنا طائراتهم بغتة هنا .

ازداد انعقاد حاجبى (باراك) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وهذا يعنى حتمية أن نتحرك بالسرعة الكافية .

قالها ، ثم التقط مسماع اللاسلكى ..

وأصدر أوامره الجديدة ..

بكل الحزم ..

والصرامة ..

والغضب ..

* * *

سبع دقائق بعد منتصف الليل ، وما زال (أدهم) ورفيقاه متحفزين متأهبين ..

والوقت يمضى ببطء أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم بدأ الهجوم الإسرائيلى بغتة ..

وبلا مقدمات ..

اثنا عشر جنديًا إسرائيليًا اقتحموا المدخل الغربى للممر ..

وعشرون جنديًا اقتحموا مدخله الشرقى ..

وكلهم راحوا يطلقون نيران مدافعهم الآلية بمنتهى الشراسة والعنف ، وهم يندفعون إلى الممر من الجانبين ..

عملية تنظيف شاملة ، تهدف إلى القضاء على كل أثر للحياة فى المكان ..

ولكن المشكلة أن هذا الهجوم كان متوقعًا ..

وتقليديًا ..

لذا فقد احتمى (محمود) و (إدوارد) بصخور كبيرة ، عند المدخل الغربى ، واحتمى (أدهم) بجسم الدبابة المحطمة ، عند المدخل الشرقى ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظلَ ثلاثتهم صامتين ، ساكنين ..

ثم جذب (إدوارد) حبلاً قويًا ، يمتدّ إلى أعلى جدار المدخل الغربى ..

ومع جذبته ، انفصل عنقود من القنابل اليدوية عن فتائله ..

وسقط وسط الجنود الإسرائيليين ..

ثم دوت الانفجارات ، فى تتابع سريع ..

وطارت أجساد الإسرائيليين فى عنف ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها (إدوارد) من مكمنه ، وراح يطلق رصاصاته بكل سخاء ، فى حين أطلق (محمود) نيران قاذفة اللهب التى يحملها ، فى وجوههم جميعًا ..

ومع تردُّد دوى الانفجارات عبر النفق ، ضغط (أدهم) زناد مدفعه ..

وراح يطلق النار ..

كل رصاصة من رصاصاته حصدت إسرائيليًا بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

كل رصاصة ..

دون استثناء واحد ..

وفوجئ الإسرائيليون بأنهم يتساقطون كالذباب، دون أن يمكنهم تحديد موضع ذلك القناص المذهل ، الذى يجتزّهم على هذا النحو ..

وكإجراء دفاعى قتالى ، انتزع كل منهم قنبلة من حزامه ..

وألقوا كل قنابلهم نحو الممر ..

ورأى (أدهم) اثنتى عشرة قنبلة تندفع نحوه ..

وبسرعة ، خفض رأسه ، وأحاطها بذراعيه ، وانثنى بجسده كله ، ليحتمى أكثر وأكثر بجسم الدبابة المحطّمة ..

وانفجرت القنابل كلها فى آن واحد ..

وكان دوى الانفجار هائلاً ..

قويًا ..

عنيفًا ..

ومن فرط عنفه ، دفع البرج المحطَم للدبابة ، فمال على نحو مخيف ، ثم هوى ..

فوق (أدهم) مباشرة ..

★ ★ ★

لم يبد وزير الدفاع الإسرائيلى غاضبًا ثائرًا ، فى حياته كلها ، مثلما كان فى تلك الدقائق الأولى ، من يوم السابع من أكتوبر ١٩٧٣م ..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة إلا الثلث صباحًا ، عندما دلف الجنرال (دان زورسكى) إلى مكتبه ، وأدى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ لقد طلبت مقابلتى فورًا يا سيادة الوزير .

صاح به وزير الدفاع الإسرائيلى فى غضب شديد :

ـ أى تهريج هذا ، الذى يحدث فى قطاعك يا (زورسكى) ؟! أصحيح أن أحد ضباطك قد أقحم قواتنا فى معركة خاصة ، دون تخطيط مسبق ، فى منطقة الممرات ؟

ارتبك (زورسكى) بشدة ، وهو يجيب :

ـ الواقع أن الضابط (باراك عمتاى) ..

قاطعه الوزير فى حدة :

ـ اسمه ورتبته لا يعنيانى ، فسيفقد كل شىء حتمًا ، بعد ما سيناله فى المحاكمة العسكرية .

ثم بلغت ثورته ذروتها بغتة ، وهو يصرخ :

ـ ماذا تتصوَرون جميعًا ؟! هل صدَقتم دعايتنا ، التى تقول إن جيشنا لا يقهر ، وأن العرب مجتمعين لا يمكنهم هزيمتنا ، مهما فعلوا أوقاتلوا ؟! أنتم واهمون.. كلكم واهمون.. ينبغى أن تواجهوا الأمر بجدية أكثر .. إنها حرب شاملة يا رجل .. هل تفهم ؟! حرب شاملة .. المصريون يضربوننا من الجنوب ، والسوريون من الشمال ، وكلاهما يحقق نجاحًا وتقدُمًا ملموسًا ، يثير خوف وذعر القيادات السياسية إلى أقصى حد ..

ثم تراجع فى مرارة عجيبة ، وهو يلوِح بيده ، متابعًا :

ـ إنها أوَل مرة يحقق فيها المصريون تفوقًا عسكريًا ، منذ اللحظات الأولى للقتال .. إنهم يسيطرون على سماء المعركة بنسبة سبعين فى المائة على الأقل .

خُيِل لـ (زورسكى) أن الدماء قد غابت من جسده كله ، وهو يتمتم :

ـ سيِدى الجنرال .. إننى ..

قاطعه وزير الدفاع الإسرائيلى ، وكأنما يرفض مجرَد الاستماع إليه وإلى تفسيراته :

ـ إننا ندرك مدى خطورة الموقف ، فقواتنا فى الخطوط الأمامية تحتاج إلى تموين وذخائر وإمدادات سريعة، خلال الأربع والعشرين ساعةَ القادمة ، وإلا فقدنا السيطرة على الموقف تمامًا .

ثم نهض من خلف مكتبه بحركةً حادة ، متابعًا فى عصبية :

ـ إننا نستعد لهجوم شامل على الممرات ، خلال ساعتين على الأكثر ، ولواء كامل من دباباتنا يستعد للانتقال إلى غرب الممرات ، والسبيل الوحيد لهذا هو استعادة سيطرتنا عليها مرة أخرى .. بأى ثمن كان .

واستعاد غضبه الهادر مرة أخرى بغتة ، وهو يصرخ :

ـ ولكن ليس بأسلوب صبيانى سخيف ، كالذى يتبعه ضابطك .

بدا للجنرال (زورسكى) وكأن مرارة الدنيا كلها قد استقرَّت فى أعماقه ، وهو يتمتم :

ـ أوامرك يا جنرال .

استدار إليه وزير الدفاع الإسرائيلى ، قائلاً بصرامة :

ـ ما دام ضابطك المجنون هذا قد أشعل حربه الخاصة هناك ، دون أوامر منا ، وما دام قد بلغ ممر (متلا) قبل أن تبلغه قواتنا النظامية ، فدعه هناك .. دعه يواصل الحرب ، حتى يرهق المصريين ، ويستنفد قواهم إلى أقصى حد ، قبل أن تصل القوات الفعلية ، لتسحقهم سحقًا .

واكتسى صوته بغضب وثورة لا مثيل لهما ، وهو يضيف :

ـ وبعدها سأحاكمه بنفسى .. وبمنتهى القسوة .

ولم تعد فى جسد الجنرال (زورسكى) ووجهه قطرة دم .. قطرة واحدة ..

* * *

تفجَّرت الدماء أنهارًا ، عند المدخل الغربى للممر ، وتساقط الإسرائيليون كالذباب ، مع الانفجارات والنيران والرصاصات ..

ولكنهم ، وعلى الرغم من هذا ، واصلوا القتال فى استماتة ..

وراحوا يطلقون قنابلهم عبر الممر ..

ومع الانفجارات القريبة ، هتف الجندى (محمود) فى توتر :

ـ ذخيرتنا أوشكت على النفاد ، وانفجار القنابل داخل الممر ، يكاد يمزِّق آذاننا .

أجابه (إدوارد) فى حزم :

ـ لا يمكن أن نتوقَّف عن القتال .. لقد وعدت سيادة الملازم ألا يمكنهم العبور ، إلا على جثتينا .

تمتم (محمود) ، وهو يطلق ألسنة اللهب :

ـ يبدو أن هذا ما سيحدث للأسف .

عضَّ (إدوارد) شفتيه ، من شدَّة ما يشعر به من مرارة ، وهو يتمتم :

- وماذا ستفعل (مصر) عندئذ ؟! ماذا ستفعل ؟!

زفر (محمود) ، قائلاً :

- لها الله .

لم يكد ينطق عبارته ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وتفجَّرت بقعة من الدم فى صدره ، وسقطت قاذفة اللهب من يده ، قبل أن يهوى هو إلى جوار (إدوارد) ، الذى صرخ :

- لا يا (محمود) .. لاااا ..

ثم ضغط زناد مدفعه الآلى ، صارخاً :

- أيها القتلة .. أيها الأوغاد .

ولكن مع نهاية صرخته ، توقَّف مدفعه عن العمل ..

وأدرك الإسرائيليون هذا .

أدركوه عندما توقَّفت النيران فجأة ، من داخل الممر ..

وعندما لم يسقط منهم قتيل آخر ..

ولدقيقة أو يزيد ، أوقفوا نيرانهم ، وأرهفوا أسماعهم ، للتيقن مما حدث ..

ثم هتف أحدهم ، بلغة عربية ركيكة :

- استسلموا أيها المصريون .. لن تربحوا هذا القتال أبدًا .

جاوبتهم لحظة من الصمت ، أعقبها صوت (إدوارد) ، وهو يقول :

- إننى أستسلم .

هتف به الإسرائيلى :

- وماذا عن الباقين ؟!

مضت لحظة صمت أخرى ، قبل أن يقول (إدوارد) :

- لا يوجد هنا سواى .

اتسعت عيون الإسرائيليين الأربعة ، الذين تبقوا من فرقة الاقتحام ، فى دهشة بالغة ، وأحدهم يتساءل :

- أأنت مجرَّد رجل واحد ؟!

أجابه (إدوارد) ، وهو يبرز من خلف الصخرة الضخمة ، التى كان يحتمى بها ، وقد رفع ذراعيه فوق رأسه :

- كنا رجلين ، ولكن زميلى لقى مصرعه .

تطلَّع الإسرائيلى فى ذهول إلى جثث رفاقه ، التى تفترش المكان ، واستعاد ذهنه مشهد الآخرين ، الذى اشتعلت النيران

فيهم ، وفيما حملوا من قنابلهم ، وسحقتهم سحقًا بلا رحمة ، قبل أن يهتف :

ـ رجلان فقط ؟!

تبادل رفاقه الثلاثة معه نظرة شديدة التوتر ، ثم أشار أحدهم إلى (إدوارد) ، قائلاً فى صرامة :

ـ اقترب أيها المصرى .

كانت مدافعهم الآلية مصوّبة إليه فى تحفز ، وهو يتجه نحوهم فى بطء ، وعيناه ترصدهم بنظرة غريبة ، فهتف به أحدهم فى عصبية :

ـ كيف فعلتما كل هذا ؟!

أجابه (إدوارد) فى حزم :

ـ لقد وعدت .

سأله آخر فى دهشة حذرة :

ـ وعدت ؟! وعدت من ؟!

ارتجفت شفتا (إدوارد) فى حزم ، وهو يجيب :

ـ وعدت سيادة الملازم (أدهم) .

خُيّل للإسرائيليين أن الرجل قد فقد عقله ، فتبادلوا نظرة متوترة ، ثم سأله أحدهم فى حدة :

ـ وعدته بماذا أيها المأفون ؟!

خفض (إدوارد) يديه ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ بألا تعبروا الممر ، إلا على جثتينا .

حدَق الإسرائيليون الأربعة فيه بذهول مذعور ، عندما انخفضت يداه ، واليسرى تحمل فتيل القنبلة ، التى تستقر فى اليمنى ..

وقبل حتى أن يكتمل تحديقهم ، دوى الانفجار ..

بمنتهى العنف ..

* * *

ثانية واحدة ، وينسحق الملازم أوّل (أدهم صبرى) تمامًا ، تحت برج الدبابة ..

ثانية واحدة ويلتقى بأفراد فرقته الانتحارية ، الذين دفعوا أرواحهم ثمنًا لنجاح عملية ، يعتمد عليها أمن وسلامة (مصر) كلها ..

وبكل ما يتميَّز به ، من سرعة وخفة ، دفع (أدهم) جسده إلى الخلف ..

ولكنه ارتطم بصخرة صغيرة ..

واختلّ توازنه ..

وهوى البرج ..

وارتطم بالأرض ..

فى عنف ..

ومع سقوطه ، اندفع الإسرائيليون الثمانية ، الذين نجو من المواجهة ، للظفر بمن كبدهم كل هذه الخسائر الرهيبة ..

ووثب ثلاثة منهم فوق جسم الدبابة ، وهم يحملون مدافعهم الآلية ، فى حين انقسم الباقون إلى قسمين ، اندفع كل قسم منهم إلى أحد الجانبين ، للسيطرة على الموقف تمامًا ..

ولكن (أدهم) برز فجأة ..

برز من بين قمة البرج ومدفع الدبابة ، حيث أنقذه القدر فى ذلك الفراغ بينهما ، وانتخبه ليظل فى قائمة الأحياء ..

كان قد أضاف جرحًا فى جبهته ، وإصابة جديدة فى ذراعه ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يتحرَّك بسرعة البرق كالمعتاد ..

وعلى الرغم من أن الإسرائيليين كانوا متحفزين بالفعل ، إلا أن رصاصاته قد حصدت الثلاثة ، الذين اعتلوا جسم الدبابة ، فى اللحظة الأولى ، ثم دار بجسده دورة شديدة المرونة ، دون أن ينهض من مكانه ، وأطلق النار على أولئك الذين أتوا من خلفه ..



وعلى الرغم من أن الإسرائيليين كانوا متحفزين بالفعل ، إلا أن رصاصاته قد حصدت الثلاثة ، الذين اعتلوا جسم الدبابة ..

وفى اللحظة نفسها ، أطلق الآخرون نيرانهم ..

واخترقت رصاصة جانب جدار بطن (أدهم) ، ونفذت من خلال خمس سنتيمترات من الجلد واللحم ، لتغوص فى أرضية الممر ..

وغاصت ثانية فى كتفه ..

وحماه مدفع الدبابة من الرصاصات الأخرى ..

ولم يضع هو جزءًا من الثانية ..

لقد استدار يواجههم ، وأطلق رصاصاته نحوهم ..

ومع سقوط رجال القوات الخاصة الإسرائيليين ، تراجع الجنديان المتبقيان ، وهما يطلقان نيرانهما فى عنف ، وراحا يعدوان لمغادرة الممر ، قبل أن يظفر بهما (أدهم) ، كما ظفر زملائهما ..

واتسعت عينا (باراك) فى ذهول ، وهو يشاهد الرجلين يعدوان خارج الممر ، وهتف عبر اللاسلكى :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه أحدهما ، وهو يلهث فى شدة :

ـ ذلك الضابط المصرى داخل الممر شيطان حقيقى .. لقد قتل الجميع .

اتسعت عينا (باراك) عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ ضابط مصرى ؟! ماذا تعنيان ؟! هل يقود ضابط مصرى واحد العملية كلها ؟!

أجابه الرجل الآخر فى عصبية :

ـ الرجل لا يقود أية عمليات .. إنه العملية نفسها .

سأله (باراك) ، فى عصبية أكثر :

ـ ماذا تقصد بالضبط ؟!

صاح الرجل ، وقد فقد أعصابه :

ـ أقصد أنه ضابط واحد يا عبقرى (الموساد) .. ضابط صاعقة مصرى واحد .. هل فهمت ؟!

احتقن وجه (باراك) بشدّة ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل ؟!

فقد كانت المفاجأة مذهلة بحق ..

على كل المقاييس ..

وبالذات المقياس العسكرى ..

من المستحيل ، بأى منطق ، أن يفعل ضابط واحد كل هذا ..

مهما بلغت مهاراته ..

ولكن مهلاً ..

القتال كان يدور على جانبى الممر ، فى آن واحد ..

وهذا يعنى أنه من المستحيل أن يكون هناك ضابط واحد ..

لقد خسر كتيبة الحراسة كلها ، وثمانية وأربعين من أفضل عناصر القوات الخاصة ، وطائرتى هليوكوبتر ، دون أن يظفر بالممر ..

وهذا يحتم أن يكون عدد المقاتلين ضخمًا ..

ربما لم يتبق منهم سوى ضابط واحد ..

ولكنهم كانوا عشرات حتمًا ..

وربما مئات ..

هذا هو المنطق المقبول الوحيد ..

ثم تحوَّل توتره كله إلى غضب شديد ..

غضب هادر ..

عنيف ..

بلا حدود ..

وتفجَّر فى أعماقه قرار واحد .

أيًّا كان عدد المصريين فى الممر ، فسيعمل على سحقهم سحقًا ..

وبكل توتره وانفعاله ، التقط مسماع اللاسلكى ، وهتف عبره :

- إلى الهليوكوبتر رقم ثلاثة .. اهبط إلى مدخل الممر ، واسحق كل من فيه بمدفعك الآلى .. هل تفهم ؟! افعلها فورًا .. لا أريد حشرة على قيد الحياة داخل الممر ، مهما بلغ صغرها .. هيَّا نفذ .

أجابه قائد الهليوكوبتر الثالث :

- كما تأمر .

ثم جذب عصا القيادة ، ومال بالهليوكوبتر ، وهو يتجه بها نحو الممر ..

وعندما أصبح أمام مدخله بالضبط ، غمغم فى صرامة :

- اذهبوا إلى الجحيم أيها المصريون .

ثم ضغط زر الإطلاق ، فى قمة عصا القيادة ..

وتفجَّرت رصاصات الهليوكوبتر فى كل مكان ..

بلا استثناء .

* * *

١٠ - ست ساعات..

فجأة ، استعاد المقدَّم (راشد) وعيه ...

وقبل حتى أن يفتح عينيه ، راح يضرب الهواء بذراعيه ، هاتفًا :

- الإسرائيليون .. امنعوهم .. لا يمكن أن نسمح لهم بالعبور .

التقطت أذناه وقع أقدام تتجه نحوه ، وشعر بأياد تحاول إعادته إلى فراش ميدانى ، وسمع صوتًا يقول :

- اهدأ يا سيادة المقدَّم .. اهدأ .. أنت هنا بين أياد مصرية .

فتح المقدَّم (راشد) عينيه ، وحدَّق فى وجه الطبيب العسكرى ، وفى الخيمة الطبية التى يرقد داخلها ، قبل أن يهتف :

- أين أنا ؟!

أجابه الطبيب :

- أنت هنا فى مستشفى ميدانى ، على بعد عشرة كيلومترات من قناة (السويس) ، وسيتم نقلك بالهليوكوبتر فورًا إلى (القاهرة) ؛ لتستكمل علاجك فى مستشفى المعادى العسكرى .

اتسعت عينا المقدَّم (راشد) فى ارتياع ، وهو يهتف :

- مستشفى ؟! وماذا أفعل هنا ؟! المفترض أن أكون هناك الآن ، فى ممر (متلا) .. أقاتل لمنع الإسرائيليين من عبوره .

هزَّ الطبيب رأسه ، قائلاً :

- هذا مستحيل الآن يا سيادة المقدَّم .. إنك مصاب بشدة ، ولقد انتهت الحرب بالنسبة لك عمليًا ، وما فعله ضابطك وهذا الجندى ، كان تصرفًا حكيمًا للغاية .

استدار (راشد) إلى حيث يشير الطبيب ، وهتف :

- (صالح) ؟! ماذا تفعل هنا ؟!

عضَّ جندى الصاعقة شفتيه ، مجيبًا :

- أنفذ أوامر سيادة الملازم (أدهم صبرى) يا سيِّدى .

هتف (راشد) :

- أية أوامر ؟!

شدَّ الجندى قامته ، مجيبًا :

- أن أعيد سيادتكم مع زميل مصاب ، وأسير إسرائيلى ، إلى منطقة نفوذ قواتنا .

صاح (راشد) فى غضب :

ـ وكيف تفعل أمرًا كهذا ؟!

أمسك الطبيب كتفيه فى قوة وحزم ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا سيادة المقدَّم .. اهدأ .. ذلك الجندى البطل قطع خطوط العدو ببسالة نادرة ، وجازف بحياته فى شهامة رائعة ، لينقذ حياتك ، أو ساقك على أقل تقدير ، ولولا وصوله إلى هنا فى الوقت المناسب ، لما كنت قادرًا حتى على الاعتراض .

عضَّ المقدم (راشد) شفتيه بدوره ، وهو يقول :

ـ ولكنه تركهم وحدهم هناك .. كان ينبغى أن يبقى .. وأن يقاتل .

خفض الجندى عينيه فى صمت ، فى حين قال الطبيب :

ـ ما فعله كان أكثر خطورة ، ولست أعتقد أن وجوده هناك كان سيضيف الكثير .

ثم مال نحوه ، متسائلاً :

ـ فماذا يفعل رجل واحد ، فى مواجهة جيش ؟!

نعم أيها الطبيب .. أنت لا تدرك كم جاء سؤالك مناسبًا ، لمثل هذه اللحظة بالتحديد ..

فما الذى يمكن أن يفعله رجل واحد ..

فى مواجهة جيش ؟!

★ ★ ★

« تذكَّر يا (أدهم) .. كل مخلوق حى ، وكل ما صنعه البشر ، يحوى حتمًا نقطة ضعف .. » .

استعاد (أدهم) عبارة والده الراحل ، وهو يحتمى بجسم الدبابة المحطمة ، من رصاصات الهليوكوبتر العنيفة ، التى تغمر الممر كله تقريبًا ..

كانت جراحه تنزف على نحو مخيف ، على الرغم من كل ما يحيط بها من ضمادات ، وجسده مرهقًا إلى أقصى حد ..

وذهنه مكدودًا للغاية ..

ولكن عقله ما زال يعمل بكفاءة ..

ويستعيد كل مهاراته ..

وخبراته ..

وذكرياته أيضًا ..

« ابحث عن نقطة الضعف يا (أدهم) .. مهما بدا خصمك قويًا ، منيعًا ، قاسيًا .. ابحث عنها ، وستربح معركتك بإذن الله .. »

العبارة ترددت فى ذهنه ، ودوى رصاصات الهليوكوبتر يتواصل بعنف ..

ويخترق بعض أجزاء جسم الدبابة (*) .

(★) رصاصات مدافع الطائرات ضخمة الحجم ، وأكثر قوة بكثير من الرصاصات العادية .

وعلى الرغم من كل هذا ، وكما درَّبه والده فى طفولته ، احتفظ بكل هدوئه ، وسيطرته على نفسه ، وهو يلتقط مدفعه ، ويطلَّ برأسه على الهليوكوبتر ، من تجويف صغير ، عبر منظار الرؤية الليلية ..

حتى الهليوكوبتر لها نقطة ضعف ..

تلك القطعة التى تنقل الحركة ، من المحرك إلى المروحة الرئيسية ..

وكابينة القيادة نفسها ..

ووسط الرصاصات والنيران ، صوَّب (أدهم) مدفعه ..

وحبس أنفاسه ..

ثم ضغط الزناد ..

وانطلقت رصاصته تصيب الهدف ..

بمنتهى الدقة ..

وتمزَّقت قطعة صغيرة من القائم ، الذى يحمل المروحة ..

وشعر قائد الهليوكوبتر بخلل مباغت ، فهتف :

ـ ما الذى ..

وقبل أن يتم عبارته ، أطلق (أدهم) رصاصته الثانية ..

واخترقت الرصاصة زجاج كابينة القيادة ، لتستقر فى رأس قائد الهليوكوبتر ..

فى منتصف جبهته بالضبط ..

واتسعت عينا الطيَّار عن آخرهما ..

ومالت الهليوكوبتر فى عنف ..

ثم ارتطمت بالأرض ..

ودوى الانفجار ..

انفجار نسف الهليوكوبتر نسفًا ، وأطاح بمروحتها ، التى اندفعت عبر الممر ، فى مشهد رهيب ، جعل (أدهم) يخفض رأسه فى سرعة ، وسمعها ترتطم بالجدران ، والسقف ، وتتحطَّم فى عنف ، ليتناثر حطامها فى كل مكان ، حتى إن قطعة منه قد ارتطمت بجسم الدبابة ، على مسافة سنتيمترات قليلة من رأسه ..

واشتعلت النيران فى مدخل الممر ..

وفى هليوكوبتر القيادة ، صرخ (باراك) :

ـ مستحيل ! مستحيل أن يفعل كل هذا رجل واحد ! مستحيل !

أراد الطيَّار أن يعلِّق على الأمر ، إلا أن غضب (باراك) وثورته جعلاه يؤثر الصمت ، وهو يراقب تلك الهليوكوبتر المحترقة ، عند مدخل الممر ..

كان من الواضح أن المصريين قد تطوّروا كثيرًا هذه المرة ..

سواء أكان من يحمى الممر رجلاً ، أم فريقًا كاملاً ..

إنهم يقاتلون ببسالة مدهشة ، منذ الواحدة والنصف ظهرًا ، وحتى الثانية والربع صباحًا ..

وبلا توقف ..

ويكفى أنهم قد سيطروا تمامًا على الممر ..

وأبادوا فرقة كاملة من القوات الخاصة ..

أفضل جنود فى إسرائيل كلها ..

وسحقوا ثلاث طائرات هليوكوبتر مقاتلة ..

ماذا يكون التفوق ، لو أنه ليس كذلك ؟!

والأسوأ من هذا ، هو أنهم قد هزموا (باراك عمتاى) نفسه .

ضابط (الموساد) المتعجرف المغرور ، الذى يتصوّر نفسه دومًا أفضل وأذكى ، وأبرع رجل مخابرات عرفه التاريخ ..

وها هى ذى الهزيمة تحفر ملامحها ، على وجهه وصوته ، وهو يهتف عبر اللاسلكى :

- استعدوا لموجة هجوم أخرى .

أجابه قائد الهليوكوبتر المتبقية فى عصبية :

- أية موجة هجوم أيها الضابط ؟! لقد فقدنا الكل تقريبًا ، ولم يعد لدينا سوى رجلين ، أحدهما يحتاج إلى إسعاف ، وهذه الهليوكوبتر ، والهليوكوبتر التى تحملك فحسب .

ثم ارتفع صوته فى غضب ، وهو يضيف :

- هيا .. اعترف يا ضابط (الموساد) .. لقد خسرت حربك الخاصة .. خسرتها بأى مقياس .

احتقن وجه (باراك) ، وهو يهتف :

- (باراك عمتاى) لم يخسر معركة قط .

أجابه قائد الهليوكوبتر فى حدة :

- ضع هذه على أول القائمة إذن .

صاح به (باراك) :

- اسمع يا رجل .. إننى ..

قاطعه فى غضب :

- إنك ستكمل حربك وحدك يا ضابط (الموساد) .

تراجع (باراك) فى مقعده ، وهو يهتف فى حنق :

- ماذا تعنى أيها المأفون ؟

أجابه فى صرامة :

ـ سأحمل الجنديين ، وأعود إلى القاعدة ، فى انتظار أوامر من القيادة .

صرخ (باراك) :

ـ لا يمكنك أن تفعل هذا .

أجابه الرجل ، وهو يرتفع بالهليوكوبتر بالفعل :

ـ حاكمنى إذن .

ثم انطلق عائدًا إلى القاعدة ، فصرخ (باراك) بكل الغضب :

ـ لا يمكنك أن تفعلها .. لا يمكنك هذا .

ولكن الرجل تجاهله تمامًا ، وهو يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

وفى توتر بلا حدود ، غمغم طيَّار الهليوكوبتر :

ـ الواقع أنه ..

قاطعه (باراك) فى غضب :

ـ هل ستتبعهم ؟!

قال الطيار فى عصبية :

ـ وماذا يمكن أن نفعل وحدنا هنا ؟!

اختطف (باراك) مسماع اللاسلكى مرة أخرى ، وهو يجيب فى حدة :

ـ نطالب بإمدادات .

ثم هتف عبر الجهاز :

ـ هنا (باراك عمناى) .. من ممر (متلا) .. إننا نواجه مقاومة عنيفة وشرسة من المصريين .. نريد إمدادات عاجلة .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يأتيه صوت صارم ، يقول :

ـ ماذا تفعل عندك يا (عمناى) .. لا توجد هنا أية معلومات ، عن عمليات قتالية فى الممر ..

أجابه (باراك) فى صرامة :

ـ لقد بدأنا الاشتباك مع العدو ، قبل حتى أن يدرك أحدكم أن المصريين هنا ..

قال الرجل فى غلظة :

ـ مازلت لا أجد لدى أية معلومات كافية .

هتف (باراك) :

ـ اتصل بالجنرال (زورسكى) .. (دان زورسكى) ، وستجد لديه كل المعلومات .. أسرع يا رجل .. كل دقيقة لها ثمنها ..

قال الرجل بنفس الغلظة :

ـ انتظر إذن .

طال الصمت هذه المرة ، فغمغم الطيار فى عصبية :

ـ إننا نعمل على نحو غير رسمى ، وفى الحروب تعتبر هذه خيانة تستوجب المحاكمة ، وربما الإعدام رميًا بالرصاص أيضًا .

صاح به (باراك) :

ـ هذا لو فشلت .

ثم عادت عيناه تتألقان فى وحشية ، وهو يضيف :

ـ أما لو ربحت ، فستعتبر بطولة ، تستوجب الترقية والمكافأة ..

تردَّد الطيَّار ، وتضاعف القلق فى أعماقه ، وهو يتساءل : ألا يبدو ما حدث أقرب إلى الفشل ؟!

لم يكد سؤاله يثب إلى عقله ، حتى انبعث صوت الرجل ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

ـ هناك خطة اقتحام للممر بالفعل .. القوات ستصل فى الخامسة والنصف تقريبًا ، وسيكون هجومًا شاملاً ، يستحيل أن تفلت منه ذبابة واحدة .

التقط (باراك) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ عظيم .. سننتظر .

قالها ، وأنهى الاتصال ، وهو يستعيد عبارات الرجل الأخيرة ..

هجوم شامل ..

يستحيل أن تفلت منه ذبابة واحدة ..

وتألَّقت عيناه مرة أخرى ..

وتسللت إلى شفتيه ابتسامة ..

ابتسامة شيطانية ..

★ ★ ★

ارتسمت ابتسامة ارتياح واثقة ، على شفتى وزير الحربية ، على الرغم من الإرهاق الواضح فى ملامحه وصوته ، وهو يقول للرئيس (السادات) :

ـ خمس وثمانون فى المائة ، من النقاط الحصينة لخط (بارليف) ، صارت فى قبضتنا يا سيادة الرئيس ، وطبقًا لتقديرات الخبراء ، سنمتلك السيطرة الكاملة ، خلال ست ساعات فحسب .

تنهَّد الرئيس ، وبعث دخان غليونه مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ حمدًا للَّه .. حمدًا للَّه .

ثم أضاف فى ارتياح :

ـ إذن فكل ما نحتاج إليه هو ست ساعات .

أجابه الوزير :

ـ لو تمكنا من منع مرور الإمدادات الإسرائيلية عبر الممرات ، حتى نهاية هذه الساعات الست ، سنمتلك السيطرة الكاملة على ساحة القتال بإذن اللَّه .

غمغم الرئيس :

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم التفت إلى قائد الصاعقة ، يسأله :

ـ ما الموقف عند الممرات ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ رجالنا يسيطرون عليها تمامًا يا سيادة الرئيس ، ولكننا نتوقَّع هجومًا إسرائيليًا شاملاً وعنيفًا ، فى محاولة لاستعادة السيطرة على الممرات ، خلال ساعة على الأكثر من الآن .

تطلَّع الرئيس إلى ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة وسبع وثلاثين دقيقة ، وهو يغمغم فى قلق :

ـ ساعة واحدة .. هذا يعنى أن الأولاد مضطرون للصمود لخمس ساعات على الأقل ، فى وجه هجوم شامل عنيف .

ارتفع صوت يقول :

ـ خمس ساعات ونصف الساعة يا سيادة الرئيس .

التفت الكل إلى مدير المخابرات ، الذى تابع فى توتر :

ـ أحد عملائنا ، فى قلب القيادة الإسرائيلية ، أبلغنا أن الهجوم الإسرائيلى الشامل ، على كل الممرات ، سيبدأ فى تمام الخامسة والنصف ، وأن الإسرائيليين قد حشدوا له كل قوتهم ، وأرسلوا إمداداتهم وفرق دباباتهم ومدرعاتهم بالفعل ، لعبور الممرات ، فور استعادة السيطرة عليها .

انعقد حاجبا الرئيس فى شدَة ، ونفث دخان غليونه فى عصبية ، وهو يقول :

ـ موقف خطير للغاية يا سادة .

أجابه قائد الصاعقة ، فى قلق حقيقى :

ـ الأكثر خطورة هو أنه لم يعد لدينا سوى ضابط واحد ، فى ممر (متلا) يا سيادة الرئيس .

سقط الغليون المشتعل ، من بين شفتى الرئيس ، وهو يهتف :

ـ ربَّاه ! ضابط واحد ؟! وحرب شاملة عنيفة من الجانب الإسرائيلى .. رحماك يا رب العالمين .

قال مدير المخابرات :

- الإسرائيليون يدركون الموقف عند ممر (متلا) ، وسيسعون لاستغلال هذا إلى أقصى حد .

ردَّد الرئيس فى توتر لا محدود :

- ضابط واحد ؟! يا إلهى ! ضابط واحد ؟!

قال قائد الصاعقة :

- المشكلة الأكبر أن الرسالة اللاسلكية ، التى أبلغنا بها هذا ، كانت آخر ما أمكن لبطارية اللاسلكى بثه ، بعد إصابتها خلال المواجهة الأخيرة ، وهذا يعنى أنه قد صار وحيدًا معزولاً ، فى قلب الممر ، وعليه أن يدير العملية كلها وحده .

ردَّد الرئيس فى استنكار :

- فى مواجهة هجوم إسرائيلى شامل وعنيف ؟!

هزَّ مدير المخابرات كتفيه ، مغمغمًا فى حذر :

- من يدرى ؟! لله فى خلقه شئون .

تنهَّد الرئيس ، متمتمًا ، وهو يستعيد غليونه ، ويشعله ثانية :

- ونعم بالله .

ونفث الدخان مرتين أو ثلاثًا ، قبل أن يميل إلى الأمام ، قائلاً فى حزم واضح :

- فليكن يا رجال .. لقد خضنا الحرب ، ولم يعد التراجع واردًا أو ممكنًا .. سنمضى فى خطتنا الرئيسية ، وسنفترض أن الإمدادات الإسرائيلية ستصل قبل الموعد الذى نريده ، وهناك خطة بديلة ، معدَّة لمواجهة مثل هذا الموقف .. فلنمض فى عملنا على بركة الله .

تردَّد قائد الصاعقة ، قبل أن يسأل :

- وماذا فى عملية الاستعادة ، التى أمرت بها يا سيادة الرئيس ؟! هل تعتقد أن ...

قاطعه الرئيس فى حزم :

- نعم .. كل شىء سيستمر على ما هو عليه .

قالها ، وهو يتساءل فى أعماقه : لماذا يصرّ على المضى فى العملية الانتحارية ، لاستعادة رجل ، لا يفترض قط أن يظلَّ على قيد الحياة ، بعد مواجهة كهذه ؟!

لماذا ؟!

لم يكن هناك جواب شاف أو منطقى ، ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، كان يصرّ على أن الأمور ستسير كما كان يتوقَّع ..

شىء لا يمكن تحديده ..

أبدًا ..

* * *

لم تكد عقارب الساعة تعلن تمام الخامسة والنصف صباحًا ، حتى بدأ الهجوم الإسرائيلى الشامل دفعة واحدة ..

سبع طائرات هليوكوبتر مقاتلة ..

خمس عربات مدرعة ..

مائة وعشرون من أفضل جنود القوات الخاصة ..

كل هؤلاء انقضوا على الممر من مدخليه ، فى لحظة واحدة ..

ومع الأضواء الكاشفة القوية ، بدا كل شىء واضحًا للأعين ..

عشرات الجثث والأشلاء ..

دماء تغرق كل شىء ..

حطام متناثر بطول الممر ..

وقتلى من رجال الصاعقة المصريين ، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ..

واندفع جنود القوات الخاصة إلى الممر ..

من الشرق والغرب ..

وانتشروا فى الممر ..

فى كل شبر منه ..

ولكنهم لم يعثروا على مخلوق واحد ..

على قيد الحياة ..

أى مخلوق ..

وفى توتر بالغ ، قال ضابطهم لقائده ، الذى ينتظر خارج الممر ، عبر جهاز اتصال محدود :

- لا يوجد أحياء هنا .. مصريون أو إسرائيليون .. الممر خال تمامًا .. وهنا أربع أو خمس جثث للمصريين فحسب .

انعقد حاجبا قائده فى شدة ، وهو يقول :

- راجعوا الأمر مرة أخرى ، وأبلغنى النتائج .

ثم التفت إلى (باراك) ، قائلاً فى حدة :

- أهذه هى حربك الخاصة ، التى تتباهى بها يا ضابط (الموساد) ؟! خمس جثث ؟! هل فقدت فرقة قوات خاصة وثلاث طائرات هليوكوبتر ، فى مواجهة خمسة من المصريين فحسب .

هتف (باراك) فى عصبية :

- إنهم هنا .. المصريون هنا .. لا تجعل هذا يخدعك .. إنهم يختبئون فى مكان ما ، حتى يمكنهم أن ...

قاطعه القائد فى غضب صارم :

- كفى .

احتقن وجه (باراك) فى شدة ، فتابع الرجل فى غضب شديد :

- ربما تتصور أن مبادرتك بطولة ، تستحق عنها المكافأة ، ولكن الواقع ليس كذلك يا (عمتاى) ، فمعى هنا أمر مباشر ، من وزير الدفاع شخصيًا ، بإعادتك إلى (تل أبيب) فورًا ، لمحاكمتك عسكريًا .

اتسعت عينا (باراك) ، وهو يهتف :

ـ محاكمة ؟! بعد كل ما فعلته .

أجابه القائد فى صرامة شديدة :

ـ هذا ما تستحقه يا ضابط (الموساد) .

صاح (باراك) :

ـ بل هذا ما تحاولون به إخفاء فشلكم وهزيمتكم أمام المصريين يا رجال الجيش .. كبش فداء ، يتحمَّل المسئولية كلها بدلاً منكم .

انعقد حاجبا القائد فى شدَة ، وصرخ :

ـ (موشى) .

هرع إليه أحد ضباطه ، وأدى التحية فى قوة ، فأشار إلى (باراك) ، قائلاً فى لهجة آمرة ، صارمة ، غاضبة :

ـ خُذ هذا الرجل ، مع الهليوكوبتر التى أتى بها ، وأعده إلى (تل أبيب) فورًا .

هتف (باراك) فى عصبية :

ـ إننى أرفض الذهاب .

تجاهله القائد تمامًا ، وهو يقول للضابط (موشى) :

ـ وإذا ما أبدى شيئًا من المقاومة ، أطلق النار على رأسه فورًا .

امتقع وجه (باراك) ، والقائد يضيف فى صرامة شامتة :

ـ كما تقول أوامر القيادة .

استلَّ الضابط مسدسه على الفور ، وصوَّبه إلى (باراك) ، الذى تضاعف امتقاع وجهه ، وهو يتمتم :

ـ خطأ .. إنكم ترتكبون أكبر خطأ .

تجاهله القائد مرة أخرى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هيا .. اذهب به .

دفع الضابط (موشى) (باراك) أمامه فى خشونة ، نحو الهليوكوبتر ، حيث استقبلهما الطيار بابتسامة باهتة ، وهو يقول متوترًا :

ـ كنت أطيع الأوامر فحسب .

ولما لم يتلقَ جوابًا ، أدار محركات الهليوكوبتر ، وارتفع بها ، لينطلق نحو (تل أبيب) مباشرة .

أما القائد ، فقد هتف برجاله داخل الممر ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود .

ـ هل عثرتم على أى أحياء ؟!

أجابه ضابطه ، من داخل الممر :

ـ مطلقًا يا سيِّدى .

انعقد حاجبا القائد ، ومطَّ شفتيه ، متمتمًا :

ـ يا للسخافة !

مال ضابطه الأوَّل نحوه ، وقال :

ـ معذرة يا سيِّدى ، ولكن يبدو أن رجل (الموساد) قد قام بعمل جيد هنا ، فها هو ذا الممر تحت سيطرتنا تمامًا ، فى حين يعانى الزملاء مقاومة شرسة عنيفة من المصريين ، عند الممرين الآخرين .

غمغم القائد :

ـ ربما كان هذا صحيحًا .

ثم أضاف فى شراسة :

ـ ولكن إعدام ذلك الضابط المغرور سيسعدنى حتمًا .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع :

ـ لست أعتقد أننا بحاجة إلى طائرات الهليوكوبتر هنا ، بعد أن استعدنا سيطرتنا التامة على الممر .. أبلغ القيادة بهذا ، وأبلغهم أنهم يستطيعون إرسال كل الإمدادات إلى هنا ، ويمكنهم إرسال طائرات الهليوكوبتر إلى الممر الآخر .. هيَا .

تردَّد ضابطه الأوَّل لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ ولكن ألا يحتمل أن يكون ضابط (الموساد) على حق ، وأن يكون المصريون مختبئين فى مكان ما ؟!

ابتسم القائد ، قائلاً :

ـ أى مكان يا رجل ؟! إنها ليست غابة متشابكة الأغصان كثيفة الأشجار .. إنه ممر واحد ، ولقد استعدناه .

ثم ربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ هيا يا رجل .. أبلغ القيادة .

انطلق الضابط الأوَّل لتنفيذ الأمر ، فى حين شدَّ القائد قامته ، والتقط نفسًا عميقًا من هواء ليل (سيناء) ، وكله ثقة فى أنه قد استعاد السيطرة الكاملة على الممر ، بعد أن لقى كل المصريين فيه مصرعهم ..

ولكن هذا كان يطرح علامة استفهام ضخمة ..

فلقد اقتحم الإسرائيليون الممر بالفعل ..

وسيطروا عليه تمامًا ..

ولم يجدو فيه مصريًا واحدًا ، على قيد الحياة ..

فأين ذهب (أدهم صبرى) إذن ؟!

أين ؟!

* * *

١١ - عزف منفرد ..

هزَّ (قدرى) رأسه فى قوة ، محاولاً نفض تلك الرغبة العارمة فى النوم عن عينيه ، وهو يعتدل فى مقعده ، ويرتشف قدح الشاى الساخن ، متسائلاً فى حيرة كبيرة :

- هذا صحيح .. أين ذهب (أدهم) يومئذ ؟!

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يجيب :

- لم يذهب إلى أى مكان ..

تضاعفت حيرة (قدرى) ودهشته ، وهو يتساءل :

- ماذا تعنى يا سيِّدى ؟! لقد فتش الإسرائيليون الممر كله .. أليس كذلك ؟!

أومأ المدير برأسه ، مغمغمًا :

- بلى .

قلب (قدرى) كفه ، هاتفًا :

- أين كان إذن ؟!

صمت المدير مرة أخرى ، وشردت عيناه فى الحجرة ، كعادته كلما استعاد ذكريات قديمة ، ثم لم يلبث أن قال فى عمق ، وكأنما يعيد مشاعره القديمة إلى أعماقه :

- والده (رحمه الله) ، كان قد علَّمه حكمة نؤمن بها جميعًا .. إذا أردت أن تخفى شيئًا ما ، بحيث لا ينتبه إليه الباحث قط ، فضعه فى مكان أكثر وضوحًا مما يمكن تخيله ..

وابتسم ، ليضيف :

- وهذا ما فعله (أدهم) .

حدَق (قدرى) فيه لحظة ، ثم هزَّ رأسه ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً :

- أعتقد أننى لم أستوعب الأمر بعد .

ثم سأل بكل حيرته وتوتره :

- أين اختفى (أدهم) من الإسرائيليين بالضبط ؟!

تطلَّع إليه المدير ، مجيبًا :

- لن يمكنك أن تتصوَّر أبدًا .

وعندما واصل رواية قصته هذه المرة ، كان للأحداث طعم مختلف ..

بالتأكيد .

* * *

« الإسرائيليون استعادوا السيطرة على ممر (متلا) يا سيادة الرئيس .. »

نطق وزير الحربية العبارة فى أسف شديد ، فحدَق الرئيس فى وجهه لحظة ، وهو يجلس على مقعده ، وساعة الجدار الكبيرة خلفه تشير إلى السادسة وسبع دقائق ، من صباح السابع من أكتوبر ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ قدَّر اللَّه وما شاء فعل .. قدَّر اللَّه وما شاء فعل .

ولثوان ، لاذ بالصمت التام ، قبل أن يقول :

ـ أظن أنه لم يعد هناك مفرَ من اللجوء للخطة الاحتياطية .

أجابه الوزير فى قلق :

ـ ولكن هذا سيرفع الخسائر بنسبة ثلاثين فى المائة يا سيادة الرئيس .

تنهَّد الرئيس فى أسى ، وقال وهو يقلب كفيه :

ـ وماذا بيدنا لنفعله ؟!

غمغم قائد الصاعقة فى مرارة :

ـ الرجال ما زالوا صامدين عند الممر الآخر .

قال مدير المخابرات الحربية فى أسف :

ـ ولكن الإسرائيليين سيستغلون هذه الثغرة حتمًا ، وستتدفَّق عبرها إمداداتهم بلا حدود ، مع غطاء جوى مدروس ومكثَّف .

تنهَّد الرئيس مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ يا للخسارة !

ران على الرجال صمت آسف ، حمل الكثير من مرارتهم وقلقهم ، و ...

وفجأة ، اندفع أحد الضباط نحو قائد الصاعقة ، وهو يحمل ورقة ، يلوِّح بها ، قائلاً :

ـ اتصال لاسلكى يا سيِّدى .. من منطقة ممر (متلا) ..

التفت إليه الجميع فى لهفة شديدة ، واختطف قائد الصاعقة الورقة ، وقرأ ما عليها بصوت مرتفع :

ـ الفاكهة طازجة .. توقيع م. ا. ص.

ثم هتف فى حماس شديد :

ـ حمدًا للَّه .. حمدًا للَّه .

سأله الرئيس فى لهفة وانفعال :

ـ ما معنى هذه الرسالة بالضبط ؟!

أجابه قائد الصاعقة فى حماس :

ـ إنها رسالة شفرية ، من ضابطنا عند ممر (متلا) .

سأله وزير الدفاع فى قلق :

- وما الذى تعنيه ؟!

أجابه قائد الصاعقة بابتسامة كبيرة :

- تعنى أن الممر ما زال تحت السيطرة .

اتسعت عيون كل القادة ، فى انبهار شديد ، وهتف أحدهم :

- تحت السيطرة ؟! كيف ؟! لقد اقتحمه الإسرائيليون بالفعل .

قال قائد الصاعقة فى حزم :

- ولكن إمداداتهم لم تعبره بعد .

سأله وزير الحربية :

- ماذا تعنى ؟!

أجاب فى حماس واثق :

- أعنى أنه ما دام ضابطنا يؤكِّد أن الأمر ما زال تحت السيطرة ، فهذا يعنى أن لديه خطة ما .

هتف أحد القادة مستنكرًا :

- هل تعتقد أن ضابطًا واحدًا يمكنه أن يتصدَّى لكل هذا ؟!

قال قائد الصاعقة فى صرامة :

- الملازم (أدهم صبرى) ليس مجرَّد ضابط صاعقة عادى .. إنه ..

قاطعه مدير المخابرات العامة فى دهشة :

- (أدهم صبرى) ؟! هل قلت : الملازم (أدهم صبرى) ؟!

التفت إليه رئيس الجمهورية ، متسائلاً :

- (أدهم صبرى) .. أهو ذلك الشاب ، الذى استعنا به قبيل الحرب ، لإحضار خريطة أنابيب النابالم ؟![*] ..

هتف مدير المخابرات العامة :

- هو بنفسه يا سيادة الرئيس .

اتسعت عيون القادة فى دهشة ، مع ذلك الارتياح الغامر ، الذى كسا وجه الرئيس ، وهو يتمتم :

- عظيم .. عظيم ..

تساءل قائد الدفاع الجوى فى حيرة :

- هل تعتقد يا سيادة الرئيس ، أنه ..

قاطعه الرئيس فى حزم :

- بالتأكيد .. ألم تسمع ما قاله قائد الصاعقة ؟! (أدهم صبرى) هذا ليس مجرَّد ضابط مخابرات صاعقة عادى .

(*) راجع قصة : (خيط اللهب) .. المغامرة رقم ٣٢

ثم تطلّع إلى مدير المخابرات العامة ، وهو يتابع :

ـ إنه ابن زميلنا (صبرى) (رحمه الله) .

واتسعت ابتسامته فى ثقة عجيبة ، وهو يستدير إلى وزير الحربية ، قائلاً :

ـ سنمضى فى الخطة الرئيسية ، كما كان مقرّرًا من قبل .

هتف قائد البحرية :

ـ ولكنه رجل واحد يا سيادة الرئيس !

وابتسم الرئيس :

ـ ابتسم دون أن يجيب ..

ولكنه فى أعماقه ، كان يشعر بثقة عجيبة ..

ثقة فى النصر ..

وفى الله (سبحانه وتعالى) ..

منتهى الثقة ..

★ ★ ★

احتقن وجه (باراك) فى شدة ، وهو يجلس داخل الهليوكوبتر ، التى تحمله إلى (تل أبيب) ، والضابط (موشى) صامت صارم إلى جواره ، يراقب الطريق بعين صقر ..

وفى توتر ، غمغم الطيار :

ـ عشر دقائق ؛ ونصل إلى (تل أبيب) .

قال الضابط (موشى) فى صرامة :

ـ كان يمكن أن أبلغها قبل هذا بكثير ، لولا ذلك التوقف السخيف ، فى منتصف الطريق .

زمجر (باراك) ، قائلاً :

ـ كان ينبغى أن أحضر أى دليل لتبرئتى ..

هتف الضابط فى تعال :

ـ هراء .. حتى ولو أحضرت كل أدلة الدنيا ، لن تكون هناك فائدة .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى شماتة :

ـ القيادة اتخذت قرارها بإعدامك .. هل تفهم ؟! إنه قرار مسبق .. نفس نظرية كبش الفداء ، التى تتحدّث عنها .

رمقه (باراك) بنظرة نارية طويلة ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ هل تريد أن تقول : إنه ليس هناك أمل فى نجاتى من هذا الموقف السخيف ..

تراجع الضابط (موشى) ، وهو يقول فى شماتة واضحة مستفزة :



لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تحرّك بسرعة مدهشة ، تليق بضابط فى (الموساد) ، فانتزع المسدس من حزام الضابط ، ثم دفعه بكل قوته خارج الطائرة ..

- لا يوجد أدنى أمل .

صمت (باراك) بضع لحظات أخرى ، ثم قال فى صرامة شديدة :

- لا يوجد فارق إذن .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تحرّك بسرعة مدهشة ، تليق بضابط فى (الموساد) ، فانتزع المسدس من حزام الضابط ، ثم دفعه بكل قوته خارج الطائرة .

واتسعت عينا الضابط (موشى) فى ارتياع ، وراح يضرب ذراعيه فى الهواء ، محاولاً التشبث بأى شىء ، ولكن (باراك) لكمه فى أنفه بكل قوته ، وهو يقول فى شراسة :

- اذهب .

ارتفعت صرخة الضابط الإسرائيلى ، حاملة كل رعب الدنيا ، وهو يهوى من حالق ، فى حين صرخ الطيّار فى رعب :

- ماذا فعلت يا أدون (باراك) ؟! يا إلهى ! ماذا فعلت ؟!

ألصق (باراك) فوهة المسدس ، بمؤخرة رأس الطيار ، وهو يقول فى سخرية عصبية :

- أخلص العالم من كل الأغبياء .

ثم ضغط زناد المسدس ، مضيفًا فى وحشية :

- أمثالك .

نسفت الرصاصة رأس الطيار، وتطاير مخه ليلتصق بالزجاج الأمامى للهليوكوبتر ، وهو يسقط فوق عصا القيادة ، على نحو جعل الطائرة تميل إلى أسفل على نحو مخيف ، فجذبه (باراك) فى سرعة ، وألقاه جانبًا ، ثم قفز إلى مقعد القيادة ، وجذب العصا لتستعيد الهليوكوبتر توازنها ، قبل أن يدور بها ، لينطلق فى اتجاه الغرب ، وقد تألّقت عيناه بشدّة ، وحملتا بريقًا عجيبًا ، وهو يقول فى شراسة :

ـ هيا يا (باراك) .. ما دام كل شىء قد ضاع وانتهى ، فلتكمل حربك الخاصة .. المصريون ما زالوا هناك ، وعليك أن تثبت هذا .. بأية وسيلة ممكنة .

قالها ، وانطلق بالهليوكوبتر ، عائدًا إلى الممر ، وعيناه تتوهجان كالنيران ..

نيران الجحيم ..

★ ★ ★

التقط القائد الإسرائيلى أنفاسه فى ارتياح ، وهو يتطلّع إلى كتيبة الدبابات ، التى بلغت الممر ، فى تمام السابعة ، وراح يلوِّح بيده لقائدها ، وهو يقول فى حزم :

ـ هيا يا رجال .. هيا .. لقد تأخّرتم عن الجدول ساعة كاملة .. لا بد أن تعبروا إلى الغرب بسرعة ، فالرفاق على خط المواجهة فى أشد الاحتياج إليكم .

سأله ضابطه الأول فى اهتمام :

ـ هل وصلت أية أخبار جديدة من الجبهة ؟!

تلاشى ارتياح القائد ، فور سماعه السؤال ، وأومأ برأسه فى ضيق واضح ، فسأله ضابطه الأوّل فى قلق :

ـ ماذا يحدث هناك ؟!

هزّ القائد رأسه ، مجيبًا :

ـ الموقف أسوأ من كل ما يمكنك تصوّره .. المصريون يجتاحون فرقنا كالوحوش، والرجال على الجبهة يقولون : إنهم يقاتلون ، وكأنما لا يحملون فى قلوبهم أدنى رهبة أو مخافة من الموت .. أو كأنهم يحرصون عليه ، إنهم يواجهون الدبابات والمدرعات بصدور عارية ، ويهاجمونها وكأنهم أقوى منها .. بل لقد أقسم طاقم إحدى الدبابات على أنه كان يطلق عليهم النار ، وكلما سقط أحدهم ، هبّ عشرة آخرون للهجوم ، حتى لقد أصابه الرعب ، وهو الذى يجلس داخل دبابته ، فبادر بالفرار من أمام وجوههم(*) .

(★) واقعة حقيقية ، جاء ذكرها فى كتاب (التقصير) ، الذى صدر فى (إسرائيل) عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م

امتقع وجه الضابط الأوَّل ، وهو يغمغم :

- إلى هذا الحد ؟!

أومأ القائد برأسه إيجابًا ، وهو يزفر فى مرارة ، ثم قال :

- من حسن حظنا أن استعدنا السيطرة على هذا الممر بسرعة ، فكتيبة الدبابات التى تراها أمامك ، هى الأمل الوحيد لنا ، فى استعادة التوازن على الجبهة ؛ إذ إن الرجال هناك يؤكدون أنه ما لم يتلقوا معونة أو إمدادات ، خلال الساعتين القادمتين على الأكثر ، فلن يكون أمامهم مفر من الاستسلام ، والقتال يدور بمنتهى العنف ، فى الممر الآخر ، ولم تتمكن قواتنا من استعادة السيطرة عليه بعد .

هزَّ الضابط الأوَّل رأسه ، متمتمًا :

- يا له من موقف !

وتابع ببصره كتيبة الدبابات ، التى تقترب من الممر ، وتستعد لدخوله ، ثم لم يلبث أن قال فى توتر :

- هناك أمر عجيب ، بشأن حطام الدبابة فى الداخل .

هتف به القائد فى عصبية :

- ألم تنتهوا من إزاحته بعد ؟!

أجابه فى توتر :

- الرجال يبذلون قصارى جهدهم ، لنقله إلى تجويف متسع ، فى منتصف الممر ، فهذا الممر - كما تعلم - لا يتسع لمرور أكثر من دبابة واحدة ، ولقد عبرت ثلاث سيارات جيب بصعوبة ، وهناك عربة مدرَّعة ، تبعد الحطام ، منذ ما يقرب من الساعة .

قال القائد فى عصبية :

- لا بد أن يتم إفساح الطريق على الفور ، فطابور الدبابات هذا سيعبر الممر الآن .. هل تفهم ؟!

ألقى الضابط الأوَّل نظرة عبر الممر ، قبل أن يجيب :

- أعتقد أن بإمكانه العبور الآن .

قال القائد فى صرامة :

- هذا أفضل ، فالقيادة لن تغفر قط إضاعة لحظة واحدة ، فى مثل هذه الظروف ، فكل دقيقة تمضى ، من الآن فصاعدًا ، دون أن تصل الإمدادات إلى الجبهة ، ستعنى تضاعف فرصة انتصار المصريين ، وهزيمة جيشنا الأسطورى .

رمقه الضابط الأوَّل بنظرة جانبية ، وغمغم :

- آه .. جيشنا الأسطورى .. بالتأكيد يا سيِّدى .. بالتأكيد .

كانت دبابة القيادة ، فى طابور الدبابات ، قد بلغت مدخل الممر الشرقى ، وبدأت تعبره بالفعل ، وهو يكرِّر :

ـ هناك أمر غير مفهوم ، بشأن تلك الدبابة المحطمة .

سأله قائده فى ضجر :

ـ وما هو ؟!

هزّ الضابط الأوّل كتفيه ، وقال :

ـ إنها خالية من الذخيرة تماماً .

مطّ القائد شفتيه ، وقال :

ـ وماذا فى هذا ؟! لقد دار قتال بينهم وبين المصريين .. أليس كذلك ؟!

أجابه الضابط الأوّل فى توتر ، وهو يتابع كتيبة الدبابات ، التى تعبر الممر ، واحدة بعد الأخرى :

ـ بلى ، ولكن حتى هذا لا يبرّر اختفاء الذخيرة بأكملها ، فتلك الذخيرة تحوى مجموعة من القذائف المضادة للدبابات ، وأخرى ذات قوة تدميرية رهيبة ، ولا يوجد بالداخل أثر واضح ؛ لاستخدام كل هذه القوة .

انعقد حاجبا القائد ، وهو يلتفت ليسأله :

ـ أين ذهبت إذن ؟!

هزّ الضابط الأوّل كتفيه مرة أخرى ، وهو يغمغم :

ـ هذا هو السؤال .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت الدبابات الإسرائيلية تعبر ممر (متلا) ، فى طابور متصل ، واحدة بعد الأخرى ، وجنود القوات الخاصة يتابعونها فى اهتمام ..

ـ ثم انفصل أحد الجنود عن رفاقه ، وراح يسير فى هدوء ، نحو المخرج الغربى للممر ، إلا أنه لم يلبث أن توقّف ، قبل أن يبلغه بثلاثة أمتار ، وراح يعبث فى شىء ما بين الصخور ، فهتف به أحد الجنود الخمسة ، الذى يتولون مهمة تأمين المخرج :

ـ ماذا تفعل عندك يا هذا ؟!

أجابه الجندى بالعبرية ، دون أن يلتفت إليه :

ـ إننى أتيقن من دقة التوقيت فحسب .

سأله فى دهشة :

ـ أى توقيت ؟!

اعتدل الجندى ، والتفت إليه فى هدوء ، قائلاً :

ـ ستدرك هذا بعد قليل .

انعقد حاجبا الإسرائيلى ، وهو يرمقه بنظرة عصبية ، قبل أن يشير إليه فى صرامة ، قائلاً :

ـ اقترب .

اتجه إليه الجندى بهدوء شديد ، فتطلّع إلى ملامحه بشك كبير ، وسأله :

ـ هل تنتمى إلى فرقتنا ؟!

أشار الجندى إلى علامة على صدره ، مجيبًا :

ـ بل أنتمى إلى الفرقة السابعة ، كما يقول هذا التعريف .. هل تجيد القراءة .

ألقى الرجل نظرة على العلامة ، ثم رفع مدفعه فى حذر ، قائلاً :

ـ وكيف أتيت إلى هنا ؟

ثم انتبه فجأة إلى بقعة أخرى ، بالقرب من موضع المعدة ، فهتف :

ـ وما هذا بالضبط ؟!

ألقى الجندى نظرة على البقعة ، ثم أدار عينيه إلى الممر ، الذى كادت دبابة القيادة تبلغ نهايته ، قبل أن يجيب فى هدوء :

ـ أظنها بقعة دماء .

تراجع الإسرائيلى خطوة ، وهو يهتف بدهشة عصبية :

ـ دماء .

لم تكد الكلمة تتجاوز شفتيه ، حتى انقضَ عليه ذلك الجندى فجأة ، وهو يقول فى سخرية :

ـ دماء وغد مثلك .

وانقضت قبضته ، تسحق أنف جندى القوات الإسرائيلية ، ثم ارتفعت فوهة مدفعه ، تواجه المدافع الآلية الأربعة ، التى رفعها الآخرون نحوه ..

وفى لحظة واحدة ، انطلقت الرصاصات ..

كل الرصاصات ..

رصاصات مدافع جنود القوات الإسرائيلية الخاصة الأربعة ..

ورصاصات مدفع (أدهم) ، الذى ينتحل شخصية أحدهم .

كانت هذه أفضل وسيلة ، يمكن اللجوء إليها ، لتجاوز تلك المحنة .

فلقد اتبع قاعدة قديمة ، تقول : « إن لم تستطع محاربتهم ، فانضم إليهم » ..

ولكنه اتبعها بأسلوبه الخاص ..

كان يعلم أنه من المستحيل أن يواجه هجومًا إسرائيليًا شاملاً بمفرده ..

وأن مصرعه سيعنى فشل العملية ..

وانقلاب موازين القوى ..

لذا ، فقد كان من المحتم أن يجد وسيلة ، غير مباشرة .

وسيلة للبقاء ..

ولتنفيذ العملية ..

عملية (عنق الزجاجة) ..

وطوال الوقت الذى قضاه بمفرده ، بعد رحيل الهليوكوبتر ، راح ينقل ذخيرة الدبابة ، وقنابلها شديدة التدمير ، إلى مواضع اختارها بمنتهى الدقة ، على طول الممر ..

ثم أوصل كل هذا بجهاز توقيت خاص ، كان يحمله ضمن معدات الصاعقة التقليدية ..

ولم يتبق بعدها سوى تأمين نفسه ..

وبسرعة ، استبدل بثيابه ثياب أحد رجال القوات الإسرائيلية الخاصة ، الذين صرعهم برصاصاته ، عند المدخل الشرقى ..

وما إن بدأ الهجوم الشامل ، حتى خرج من مكمنه ..

واندس بين الجنود ..

وكما يفعلون تمامًا ، راح يبحث عن مقاتلين مصريين وهميين ..

حتى حانت اللحظة المناسبة ..

لحظة ضبط التوقيت ..

والمواجهة المباشرة ..

وعندما أطلق رصاصاته ، كان يدرك أن هذا بمثابة إعلان وجود ..

وإعلان الحرب ..

مباشرة ..

ولقد اتجهت رصاصاته نحو أهدافها مباشرة ، وكأنه يدرك حتمية الانتصار ، فى تلك المواجهة ..

وأصابته واحدة من رصاصات الجنود الأربعة ..

ولكنه حصدهم برصاصاته حصدًا ..

وعند المدخل الغربى للممر ، هتف القائد مذعورًا :

ـ ماذا يحدث فى الداخل ؟!

انفصل عنه ضابطه الأوَّل ، وانطلق يعدو نحو الممر ، صائحًا :

ـ ضابط (الموساد) كان على حق .. المصريون ما زالوا هنا .

ودون حتى أن يلقى أوامره ، كان جنود القوات الإسرائيلية الخاصة يعدون بكل قوتهم ، نحو المدخل الغربى ، الذى انطلقت عنده الرصاصات ..

أما قائد دبابة القيادة ، التى تتقدّم الطابور ، فقد لمح ما حدث ، وهتف بمنتهى الدهشة :

- ما هذا بالضبط ؟! خيانة ؟!

وأمام عينيه ، رأى (أدهم) يثب إلى واحدة من سيارات الجيب الثلاث ، عند المدخل الغربى ، ويدير محركها ، ثم ينطلق بها مبتعدًا ، فهتف فى غضب :

- نعم .. إنها خيانة .

وبسرعة ، راح يخفض مدفعه ، ليصوّبه إلى الجيب ، وهو يضيف :

- والخيانة لها ثمن .. ثمن فادح .

نطقها ، فى نفس اللحظة ، التى تجاوز فيها خمسة من جنود القوات الإسرائيلية الخاصة دبابة القيادة ، وهم يطلقون النار خلف الجيب ، التى ينطلق بها (أدهم) بأقصى سرعة ، على رمال (سيناء) ..

وبكل الحزم والصرامة ، صوّب قائد دبابة القيادة مدفعه نحو الجيب ، و ...

وضغط زر الإطلاق ..

ودوى الانفجار .

★ ★ ★

١٢ - دماء ورمال ..

سرى توتر لا محدود ، فى صوت وزير الحربية ، وهو يراجع التقارير الأخيرة الواردة من كل قطاعات الجبهة ، وفرق المخابرات والاستطلاع ، ويقول :

- كتيبة الدبابات وصلت إلى ممر (متلا) بالفعل ، وستعبره خلال دقائق معدودة .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يغمغم :

- عجبًا ! أين ذهب ضابطنا إذن ؟!

أجابه مدير المخابرات الحربية فى تردُّد :

- ربما لقى مصرعه .

انعقد حاجبا الرئيس أكثر ، وهو يقول :

- هل تعتقد هذا ؟!

أسرع قائد الصاعقة يقول :

- الدبابات لم تعبر الممر بعد ..

أجابه مدير المخابرات فى توتر :

ـ إنها مسألة دقائق .

قال قائد الصاعقة فى صرامة :

ـ ولكنها لم تعبر بعد ..

أشار إليهما الرئيس ، لفضّ ذلك الاشتباك غير المنطقى ، وتنهّد فى عمق ، قائلاً :

ـ إنها مسألة دقائق بالفعل .. دعونا ننتظر ، ثم نحسم الأمر فيما بعد .

قال مدير المخابرات العامة فى حزم :

ـ (أدهم) سيفعلها بإذن الله .

التفت إليه قائد القوات الجوية ، قائلاً فى دهشة :

ـ يبدو أنك تثق بهذا الشاب كثيرًا .

ابتسم مدير المخابرات العامة ، قائلاً :

ـ لست أثق به فحسب ، ولكننى أحلم بضمه يومًا إلى صفوفنا أيضًا .

قال قائد الصاعقة فى صرامة :

ـ إنه أحد رجالنا .

أشار مدير المخابرات العامة بيده ، قائلاً :

ـ ذلك الشاب يصلح للمخابرات العامة ، بأكثر مما يصلح لقوات الصاعقة .

هزّ وزير الحربية رأسه فى استنكار ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا أصابكما بالضبط ؟! هل تتنافسان على شاب ، هو أقرب إلى الموت ، منه إلى الحياة ؟!

أجابه الاثنان فى آن واحد ، وبمنتهى الحزم والعزم :

ـ (أدهم) سيفعلها بإذن الله .

ابتسم الرئيس ، وهو ينقل بصره بينهما ، على الرغم من دقة الموقف ، ثم تراجع فى مقعده أكثر ، وهو يقول :

ـ كم أتمنى أن يستمر تنافسكما عليه هذا ، بعد أن تضع الحرب أوزارها .

فهم الاثنان ما يعنيه الرئيس ، فابتسما بدوريهما ، وأشار مدير المخابرات العامة إلى الساعة الكبيرة على الجدار ، قائلاً :

ـ إنها مسألة دقائق يا سيادة الرئيس ..

وكان على حق فى قوله هذا ..

إنها مسألة دقائق ..

دقائق تفصل بين الحياة ..

والموت ..

* * *

غضب هادر ، ذلك الذى تفجّر فى أعماق قائد طاقم دبابة القيادة ، وهو يصوِّب مدفع دبابته نحو الجيب ، التى ينطلق بها (أدهم) مبتعدًا ..

غضب عكس كل مرارته وحنقه وسخطه ، على تلك الانتصارات المصرية الساحقة بطول الجبهة ..

الانتصارات التى حطمت الغرور الإسرائيلى ، ونسفت الغطرسة الصهيونية ، وسحقت أسطورة جيش الدفاع ، الذى لا يُقهر ..

وفى الوقت ذاته ، كان خمسة من جنود القوات الإسرائيلية الخاصة يطلقون مدافعهم الآلية ، بكل شراسة الدنيا على الجيب ، وثلاثة منهم يندفعون لاستخدام جيب ثانية ، لمطاردة (أدهم) عبر الصحراء ..

وعلى الجانب الشرقى للممر ، كان قائد الكتيبة ، وضابطه الأوَّل ، وطاقم الأمن المصاحب لطابور الدبابات يعدون بكل قوتهم ، لمعرفة ما الذى يحدث على الجانب الآخر .

واستعد قائد دبابة القيادة لإطلاق صاروخه نحو الجيب ، و ...

وفجأة ، دوى الانفجار ..

انفجار هائل ، نسف دبابة القيادة ، وكل الصخور المحيطة بها ، وأطاح بجنود القوات الخاصة الإسرائيلية الخمسة ، وبسيارتى الجيب ، وسحق ما يحيط بهم فى عنف ..

ولكن كل هذا لم يكن سوى البداية ..

فقبل حتى أن يستوعب الجنود داخل الممر ما حدث ، انفجرت القنبلة الثانية ..

عند المدخل الشرقى للممر ..

قنبلةً أخرى من القنابل شديدة التدمير ، التى انتزعها من الدبابة المحطمة ، وزرعها وسط الصخور ، وأوصلها بجهاز التوقيت المتكرِّر ..

ومع انفجارها ، نسفت دبابة أخرى ، فى نهاية الطابور ..

وكل الصخور المحيطة بها أيضًا ..

وأطاحت بقائد الكتيبة ، وضابطه الأوَّل ، وأربعة من جنوده على الأقل ..

وهكذا أصبح الممر مغلقًا تقريبًا من الجانبين ..

دبابة محترقة وكومة من الصخور ، عند مدخله الغربى ..

ومثلها عند المدخل الشرقى ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد ظلت هناك فرصة لعبور جنود القوات الإسرائيلية الخاصة ، ومطاردة (أدهم) بكل العنف والشراسة ..

لولا القنبلة الثالثة ..

القنبلة التى انفجرت ، فى منتصف الممر تمامًا ، لتصنع موجةً عنيفة من التضاغط ، مع شدة انفجارها ، فأطاحت بالكل بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

كما يحدث فى كل الحروب ..

ولقد بلغ دوى الانفجار مسامع (أدهم) ، وهو ينطلق بالجيب مبتعدًا ، فضغط فراملها ، وأدار مقودها ، ليلقى نظرة على المشهد كله ..

كان الدخان يتصاعد من داخل الممر ، ورجال القوات الإسرائيلية الخاصة مجرَّد جثث هامدة ، فوق رمال (سيناء) ..

والتقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وهو يغلق عينيه فى قوة ..

الآن فقط يمكنه أن يلتقط أنفاسه ..

الآن فقط يمكن أن يطمئن ، إلى أن عملية عنق الزجاجة قد انتهت بنجاح ..

الإسرائيليون لم يتمكنوا من نقل الإمدادات إلى خطوطهم الأمامية عبر الممر ..

ولن يمكنهم هذا قبل عدة ساعات على الأقل ..

وهذا يحقِّق الهدف ..

ويمّلأ نفسه بالارتياح ..

والفخر ..

الفخر لأنه ضابط صاعقة ..

مصرى ..

ولم تكد الفكرة تجول بخاطره ، حتى انتزع عنه زى القوات الخاصة الإسرائيلية ، وألقاه على الرمال ، ليستعيد زى قوات الصاعقة المصرية ..

وكان هذا أمرًا محفوفًا بمخاطر شتى ، فى مثل هذه الظروف ؛ نظرًا لأنه ما زال عمليًا خلف خطوط العدو ..

ولكنه كان يشعر بأنه مصرى ..

ولا يرغب فى إخفاء هذا لحظة واحدة ..

مهما كان الثمن ..

أو الخطر ..

وفى حزم ، التقط مسماع جهاز اللاسلكى ، وغيَّر التردُّد المستخدم ، وهو يضغط زر الاتصال ، قائلاً :

ـ من (أسد ـ ٣) إلى القيادة .. أجب .. من (أسد ـ ٣) إلى القيادة ..

ولم تكد أجهزة الاتصال ، داخل مركز العمليات الرئيسى تلتقط رسالته ، حتى هتف قائد الصاعقة فى لهفة :

ـ ربّاه ! إنه الملازم (أدهم) .

ثم اختطف مسماع الجهاز ، وهو يضغط زر الاستماع العام ، الذى يتيح للكل سماع الرسالة ، وهو يهتف :

ـ أين أنت يا (أدهم) ؟! ما الموقف عندك بالضبط ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ أنا على بعد أمتار ، غرب ممر (متلا) .

نهض الرئيس (السادات) من مقعده ، وهو يسأله فى لهفة :

ـ ماذا عن الممر يا ولدى ؟!

أجابه (أدهم) ، فى سرعة واحترام :

ـ تم إغلاق الممر يا سيادة الرئيس .

تهلّلت أسارير الجميع ، وهتف الرئيس فى فرحة غامرة :

ـ حقًا ؟!

أما مدير المخابرات العامة ، فقد غمغم فى سعادة :

ـ كنت أعلم أنه سيفعلها .

وفى هدوء ، أجاب (أدهم) الرئيس :

ـ حقًا يا سيادة الرئيس .. لقد نسفت دبابة القيادة ، عند مدخل الممر الغربى ، ودبابة أخرى عند ممره الشرقى ، وثالثة فى منتصفه ، ولست أظن الإسرائيليين يمكنهم حل هذه المشكلة ، قبل ساعات من الآن .

انطلقت من حناجر الجميع هتافات السعادة والارتياح والاعجاب ، وغمغم قائد القوات الجوية بابتسامة رصينة :

ـ من الواضح أنه يستحق المنافسة .

ثم مال على مدير المخابرات العامة ، مستطردًا :

ـ قل لى : هل يجيد قيادة الطائرات ؟!

أما الرئيس ، فقد غمغم ، وهو يغلق عينيه فى ارتياح :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

أتى صوت (أدهم) مرة أخرى ، وهو يسأل فى لهفة :

ـ هل انتصرنا يا سيادة الرئيس ؟!

ابتسم الرئيس ، قائلاً :

ـ وكيف لا ينتصر شعب ، أنجب أبطالاً مثلك يا ولدى ؟!

غمغم (أدهم) ، فى لهجة أدهشت الجميع ، لما توحى به من خجل وارتباك :

ـ أشكرك يا سيادة الرئيس ، ولكن الواقع أننى لم ..

وفجأة ، وقبل أن تكتمل رسالته ، نقل جهاز الاتصال دوى رصاصات قوية ..

ثم توقف الاتصال بغتة ..

وبكل لهفة وقلق الدنيا ، هتف الرئيس (السادات) :

ـ ملازم (أدهم) .. ماذا حدث عندك يا ولدى ؟! ماذا حدث ؟!

ولكن جهاز الاتصال ، فى مركز العمليات الرئيسى لم يتلق سوى الصمت ..

صمت تام مستمر ، فجَّر فى أعماق الكل قلقًا بلا حدود ..

صمت يوحى بأن الاتصال قد انقطع ..

وإلى الأبد ..

★ ★ ★

بدا الجنرال (دان زورسكى) شاحبًا ممتقعًا كالموتى ، وهو يدلف إلى مكتب وزير الدفاع الإسرائيلى ، الذى استقبله بنظرة صارمة غاضبة ، وهو يقول :

ـ ضابطك المجنون استولى على إحدى طائرات الهليوكوبتر المقاتلة يا جنرال ..

ارتبك (زورسكى) ، وارتجفت شفتاه ، وهو يغمغم :

ـ الواقع يا سيِّدى أننى ..

قاطعه الوزير ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، فى صرامة عصبية :

ـ الواقع هو أنك كنت تعلم ما يفعله من البداية .

امتقع وجه (زورسكى) أكثر ، وهو يهتف :

ـ ليس كما تتصوَّر يا سيِّدى .

مال وزير الدفاع نحوه ، ورمقه بنظرة كالجحيم ، من عينه الواحدة ، وهو يقول ، بكل صرامة وغضب الدنيا :

ـ بل ليس كما كنت تتصوَّر أنت يا جنرال .. الكل فى مجلس الوزراء ثائر للغاية على ما حدث ، ويرون أن هذا التجاوز كان له شأن كبير ، فى انهيار قواتنا أمام الزحف المصرى ، ويصرون بشدَة على معاقبة المسئول .

اتسعت عينا (زورسكى) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ ولكننى لم ...

استوقفه وزير الدفاع بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

ـ لم تعد هناك فائدة .. أركان حربك اعترف بكل شيء ..

اتسعت عينا (زورسكى) أكثر ، وهو يردّد ذاهلاً :

ـ أركان حربى .

أشار الوزير بيده ، قائلاً :

ـ لقد أكَّد أنك كنت تعلم بكل شيء من البداية ، وأنه حاول نصحك بإيقاف (باراك) المجنون ، إلا أنك أكَّدت له أنك تستطيع الاستفادة من الموقف فى كل الأحوال ..

صرخ (زورسكى) :

ـ إنه هو الذى ...

قاطعه الوزير مرة أخرى ، بنفس الإشارة الصارمة ، وهو يواصل بمنتهى الصرامة والغضب :

ـ فلو أفلح فيما أقدم عليه ، كنت ستنسب كل ما حدث لنفسك ، أما لو فشل ، فستلقى العبء كله على الآخرين .

بدا صوت (زورسكى) أقرب إلى البكاء ، وهو يهتف :

ـ أقسم لك يا سيادة الوزير إنه هو الذى ..

قاطعه الوزير مرة ثالثة ، وهو يعود إلى مكتبه ، قائلاً :

ـ إننى أصدِّقك .

زفر (زورسكى) بارتياح ، وخُيِّل إليه أن ساقيه لم يعد باستطاعتهما حمله ، إلا أن الوزير استدرك ، مستعيدًا صرامته الغاضبة :

ـ ولكن هذا لن يفيد .

هتف (زورسكى) فى ذعر :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه الوزير فى سرعة :

ـ لأن الباقين لا يصدقونك .

ثم صمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ـ ثم إن الرأى العام لن يقبل باتهام ضابط أركان حرب .

وعاد يميل نحوه ، مستطردًا :

ـ إنه يريد جنرالات ..

عادت عينا (زورسكى) تتسعان فى ذعر ، وهو يقول :

ـ كبش الفداء .

تراجع الوزير ، قائلاً :

ـ بالضبط .

لم يكد يتمّ كلمته ، حتى دلف اثنــان مـن ضباطه إلى مكتبه ، وصوبا سلاحيهما إلى الجنرال ، الذى نقل بصره بينهمـا ، قبل أن يقول فى مرارة :

ـ يبدو أننى أنا من سيدفع الثمن .

أومأ الوزير برأسه إيجابًا ، وقال فى صرامة :

ـ (باراك) لن يفلت أيضًا .

عضَّ الجنرال (زورسكى) شفتيه ، بكل مـرارة الدنيـا ، والضابطان يحملانه خارج مكتب الوزير ، وشعر بموجة هائلة من الغضب والسخط تعربد فى أعماقه ، وتطرح على كل ذرة فى كيانه سؤالاً واحدًا ..

سؤال لم يعد لديه من هدف فى الدنيا ، سوى أن يجد إجابته .

أين (باراك عمتاى) الآن ؟!

أين ؟!

ولكنه لم يكن يدرك أنه لن يحصل على جواب لسؤاله ..

أبدًا ..

* * *

« حمدًا لله على سلامتك يا بطل .. »

نطق الدكتور (مصطفى) العبارة ، وهو يربِّت على كتف المقدَّم (راشد) الذى استعاد وعيه على التو ، داخل حجرته فى مستشفى القوات المسلحة فى (المعادى) ، قبل أن يجلس على طرف الفراش ، متابعًا :

ـ العملية تمت بنجاح ، وأمكننـا إنقاذ ساقك وحياتك ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى يمكنك العودة إلى العمل .

غمغم المقدَّم (راشد) :

ـ فى قوات الصاعقة ؟

ضحك الدكتور (مصطفى) ، قائلاً :

ـ ليس إلى هذا الحد .

ثم عاد يربِّت على كتفه ، متابعًا :

ـ ولكن فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) على نجاتك ، فلولا وصولك إلى مستشفى الميدان فى الوقت المناسب ، لما أمكننا أن نفعل هذا .

ومال نحوه ، يغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ أعتقد أنك مدين بحياتك لمن اتخذ قرار إعادتك إلينا .

غمغم المقدَّم (راشد) فى تأثُّر :

ـ ولمن جازف بعمره لينفذ القرار أيضًا .

اعتدل الدكتور (مصطفى) ، وهو يشير إلى ركن الحجرة ، قائلاً :

ـ أتقصد هذا البطل ؟!

التفت المقدَّم (راشد) فى سرعة ، إلى حيث يشير الدكتور (مصطفى) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ (صالح) !!

أجابه الجندى فى خفوت :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك يا سيادة المقدَّم .

ارتجفت شفتا (راشد) فى انفعال ، والدكتور (مصطفى) يقول :

ـ لقد رفض أن يعود إلى وحدته ، قبل أن يطمئن على سلامتك .. صدقنى .. أنا أحسدك على كل هذا الحب ، الذى يكنه لك جنودك .

غمغم المقدَّم (راشد) وهو يقاوم دموعه :

ـ إنه أكثر من مجرَّد حب أيها الطبيب .

ثم ارتجفت شفتاه أكثر ، مع محاولته لكتمان انفعاله ، وهو يضيف :

ـ إنه انتماء .

ارتفع حاجبا الدكتور (مصطفى) لحظة ، ثم لم يلبث أن خفضهما ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ صدقت .

ثم عاد يربِّت على كتفه ، وهو ينهض ، متابعًا :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك يا بطل .

قالها ، وغادر الحجرة ، تاركًا خلفه صمتًا رهيبًا ..

وانفعالات بلا حدود ..

ولدقيقة كاملة ، ظلَّ (راشد) يتطلَّع إلى جندى الصاعقة ، قبل أن يمدَّ يده إليه ، قائلاً فى تأثر :

ـ أشكرك .. أشكرك يا بطل .

اندفع الجندى يصافحه فى حرارة .. وهو يهتف :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك يا سيادة المقدَّم ..

شدَّ (راشد) على يده أكثر ، وربَّت عليها بكفه الأخرى ، وهو يغمغم :

ـ لن أنسى ما فعلته من أجلى قط ..

تمتم الجندى متأثرًا :

ـ كنت أنفذ أوامر سيادة الملازم (أدهم) يا سيِّدى .

اعتدل (راشد) وهو يسأله فى لهفة :

ـ أين هو ؟! هل من أخبار عنه ؟!

هزَّ الجندى رأسه نفيًا فى صمت ، فانعقد حاجبا (راشد) وهو يغمغم :

ـ تُرى أين هو الآن ؟!

وكان هذا هو السؤال ..

أين هو الآن ؟!

أين ؟!

★ ★ ★

التقى حاجبا (باراك) بتوتر بالغ ، مع ذلك الدخان الكثيف ، الذى يتصاعد من المدخل الشرقى لممر (متلا) ، الذى توقَّفت عنده مجموعة من الدبابات ، وكلها تحاول إزاحة دبابة محطمة عن المدخل ..

وبكل غضب الدنيا ، هتف (باراك) :

ـ الأوغاد لم يصدقونى .. المصريون ما زالوا هنا .. أعلم هذا منذ البداية ..

حلَّق بالهليوكوبتر عبر الجبل ، إلى الجانب الآخر منه ، وهاله أن يرى المشهد نفسه ، باستثناء أنه لم تكن هناك دبابة واحدة خارج الممر ..

فقط حطام ..

وجثث ..

ودماء ..

ورمال ..

وتضاعف غضبه أكثر ..

تضاعف ألف مرة ..

لقد كان المصريون هناك ..

من المستحيل أن يكون مصريًا واحدًا ..

من المستحيل تمامًا !

وبكل غضبه وثورته ، راح يدور بالهليوكوبتر حول القمة ، وهو يهتف :

ـ كان ينبغى أن يصدقونى .. كلهم حمقى .. حمقى ..

ومع دورته الثالثة ، لمح فجأة آثار إطارات الجيب عن الرمال..

ولمحها من بعيد ..

وبداخلها (أدهم) بزى الصاعقة المصرى ..

وعبر منظاره المقرَّب ، أدرك ما يفعله هذا الأخير ..

كان يتحدَّث عبر اللاسلكى ..

ليبلغ القيادة بنجاح مهمتَه بالتأكيد ..

وكان هذا يكفى ، ليتفجَّر كل غضب الدنيا ، فى أعماق (باراك) ..

إذن فهو رجل واحد ..

ضابط صاعقة مصرى واحد ..

لم يعد هذا مستحيلاً ..

إنه يراه ويرصده بنفسه ..

على رمال (سيناء) .

وعلى مسافة نصف الكيلو متر فحسب من الممر ...

من ساحة انتصاره ..

وهزيمتهم ..

ودون أن يدرى ، وجد (باراك) نفسه يصرخ :

ـ لاااااا ..

ومع صرختِه ، ضغط زر الإطلاق ، أعلى عصا القيادة ..

وانطلقت رصاصات الهليوكوبتر ..

وفوجئ (أدهم) بالرصاصات تنهال عليه من بعيد ..

وتنسف جهاز الاتصال اللاسلكى ..

وبسرعة ، استدار يرصد موقع الهليوكوبتر ..

وأدرك لماذا فشل قائدها فى إصابته ..

لقد أطلق النار ، قبل أن يقترب منه لمسافة كافية ..

ولكنه سيقترب حتمًا ..

وبسرعة ..

لذا ، فقد أدار (أدهم) محرِّك الجيب فى سرعة ..

ثم انطلق بها ..

على رمال (سيناء) ..

كان يدرك أنه لن ينجح فى الإفلات أبدًا من الهليوكوبتر ..

إلا لو انطلق فى مسار متعرِّج ..

وغير متوقَّع ..

وهذا ما فعله بالضبط ..

ضغط دوَّاسة الوقود بأقصى قوته ، وانطلق فوق الرمال ، بأقصى ما تسمح به محركات السيارة ، وهو يميل يمينًا ويسارًا فى حدة ..

ومن خلفه ، راح (باراك) يطلق النار بلا هوادة ، وهو يصرخ :

ـ لن تفلت منى أبدًا أيها المصرى .. (باراك) لم يخسر معركة واحدة فى حياته .. هل تفهم ؟! لم يخسر معركة واحدة .

كانت رصاصاته تخترق رمال الصحراء ، وتغوص فيها ، حول سيارة (أدهم) ، الذى استعان بكل مهاراته فى القيادة ، و ...

ولكن (باراك) أيضًا لم يكن بالشخص العادى ..

إنه ضابط مخابرات إسرائيلى ..

ومقاتل شرس ..

للغاية ..

لذا ، فقد واصل مطاردة الجيب ، بكل الإصرار والعنف والشراسة ..

حتى نجح فى إصابتها أخيرًا ..

واخترقت رصاصات الهليوكوبتر مؤخرة الجيب ..

ونسفت أحد إطاراتها الخلفية ..

ومع سرعتها الفائقة ، فقدت الجيب توازنها بعنف ..

ووثبت فوق رمال (سيناء) ..

واشتعلت النيران فى خزان وقودها ..

ثم انقلبت ..

وفى اللحظة الأخيرة ، قفز (أدهم) خارجها ..

وتدحرج فوق رمال (سيناء) ..

ومن خلفه ، دوى الانفجار ..

انفجرت الجيب ، وتناثرت شظاياها فى عنف ، فخفض (أدهم) رأسه ، ورفع ذراعيه ليحميه ..

ثم تلاشى الدوى ..

وتصاعد صوت هدير مروحة الهليوكوبتر ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، وعلى الرغم من إدراكه عدم جدوى هذا ، وثب (أدهم) واقفًا ..

وانطلق يعدو بكل قوته ..

وفى الهليوكوبتر أطلق (باراك) ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يهتف فى وحشية :

ـ هيا .. اجر يا ضابط الصاعقة المصرى .. اركض على رمال (سيناء) ، كما فعل أقرانك فى حرب يونيو ١٩٦٧م .. هيًا ..

ثم انعقد حاجباه .. فى شدة ، وهو يتابع ركض (أدهم) ، قبل أن يتابع فى صرامة شرسة :

- ولكن اطمئن .. فى هذه المرة لن أطاردك برصاصات الهليوكوبتر ..

ودفع جزءًا من عصا القيادة ، فانزاح فى نعومة ، كاشفًا زرًّا أحمر كبيرًا ، و (باراك) يقول :

- إنك تستحق ما هو أفضل ..

وتألّقت عيناه بشدّة ، وهو يضيف :

- تستحق صاروخًا ..

كان (أدهم) يعدو بكل قوة ، إلا أن أجهزة التوجيه فى الهليوكوبتر رصدته فى سهولة ..

ولم يعد من الممكن أن يخطئ (باراك) إصابته ..

وخصوصًا بصاروخ ..

لذا ، فقد تضاعف تألق عينى (باراك) ، وارتجفت كل ذرة فى كيانه ، من فرط التوتر والانفعال ، وهو يقول ، بكل ما يملأ كيانه من غضب ، وثورة ، ووحشية ، وسخط :

- هنا تنتهى الحرب بالنسبة لك ..

وضغط زر الإطلاق ..

وكان الانفجار قويًا ..

وفى الهدف ..

مباشرة .

* * *

١٢ - الختام

فجأة ، ظهرت تلك الهليوكوبتر المصرية ..

وفجأة أيضًا ، انقضّت على هليوكوبتر (باراك عمتاى) ..

لقد فوجئ بها (أدهم) ، تبرز من خلف تبة رملية عالية ، وتتجاوزه بسرعة مدهشة ، ثم تطلق صاروخها نحو هليوكوبتر (باراك) ..

فى نفس اللحظة ، التى ضغط فيها هذا الأخير زر الإطلاق ..

وقبل أن يخرج صاروخه إلى هدفه ، بلغه الصاروخ المصرى ..

وأصاب الهدف ..

مباشرة ..

ودوى انفجار آخر ، فى سماء (سيناء) ..

وألقى (أدهم) جسده أرضًا ، وشعر بكل إصاباته تنزف بشدّة ، ودوىّ الانفجار يتردّد فى أذنيه ، ثم ينتهى بصوت ارتطام عنيف بالأرض ..

ولثوان ، ظلّ (أدهم) فى موضعه ، وشظايا الهليوكوبتر الإسرائيلية تتناثر فى كل مكان ..

وعندما نهض أخيرًا ، كانت رمال (سيناء) تتشرَّب الكثير من دمه ..

وكانت ضماداته كلها حمراء ..

ولكنها بدت له ، فى تلك اللحظة ، أشبه بوسام ..

وسام أحمر قان ، منحته إياه الحرب ، التى خاضها بكل كيانه ، من أجل الوطن ..

من أجل (مصر) ..

وفى مهارة ، اتجهت الهليوكوبتر المصرية نحوه ، وهبطت على مساحة أمتار قليلة منه ، وبرز منها ضابط صاعقة ، هتف به :

ـ أسرع أيها الملازم (أدهم) .. أسرع .

كانت كلّ جراحه وإصاباته تؤلمه ، ولكنه دفع جسده نحو الهليوكوبتر ، التى لم يكد يستقر داخلها ، حتى ارتفعت به على الفور ، والضابط داخلها يقول فى سعادة وارتياح :

ـ حمدًا للَّه .. لقد وصلنا فى الوقت المناسب ..

رقد (أدهم) على أرضية الهليوكوبتر ، وهو يغمغم :

ـ هذا من حسن حظى .

هزَّ الضابط رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لا شأن للحظ بالأمر .. إننا هنا من أجلك .

قال فى دهشة :

ـ من أجلى ؟!

أومأ الضابط برأسه ، قائلاً :

ـ نعم يا بطل .. إننا هنا لانتشالك وإعادتك إلى الوطن ، وبأوامر من السيِّد رئيس الجمهورية شخصيًّا .

شعر (أدهم) بكل تعب وإرهاق الدنيا ، بعد أن استرخى جسده ، وهو يغمغم :

ـ حقًّا ؟!

كان مصابًا بشدَة ، وفقد الكثير من دمه ، ولم يذق لحظة واحدة من النوم ، منذ صباح الخامس من أكتوبر ، ويقاتل طوال الوقت ..

ولكن يبدو أنه لم يشعر بهذا ، إلا عندما استقرَّ داخل الهليوكوبتر ..

لقد بذل جسده جهدًا مضاعفًا ، وهو يصرّ الآن على استعادة حقه فى الراحة والاسترخاء ..

وبينما يغلق (أدهم) عينيه ، سمع ضابط الصاعقة يتحدَّث عبر اللاسلكى لبضع لحظات قبل أن يناوله المسماع ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ السيِّد رئيس الجمهورية يرغب فى تهنئتك بنفسه أيها الملازم ..

التقط (أدهم) مسماع اللاسلكى ، ووضعه على أذنيه ، دون أن ينهض من رقدته ، وسمع الرئيس (السادات) يهتف فى حماس :

ـ أحسنت يا (أدهم) .. أحسنت يا بنى .. كلنا كنا واثقين من أنك ستفعلها .. رحم الله والدك يا بنى .. صحيح المثل القائل ، ما مات من أنجب .. كلنا هنا فى انتظارك يا ولدى ، وسيتم إسعافك على الفور .. هل تسمعنى يا (أدهم) ؟! هل تسمعنى يا ولدى ؟!

ولكن (أدهم) لم يكن يسمعه فى الواقع ..

لقد تمرَّد جسده أخيرًا على كل القواعد الطبيعية ..

أو بمعنى أدق ، عاد إلى كل القواعد الطبيعية ..

وفقد البطل وعيه .

فقده بعد أن حقق انتصارًا ستقف كل كتب التاريخ عاجزة عن استيعابه وتصديقه طويلاً ..

انتصارًا جعل من ممرات (سيناء) عنق زجاجة ، أمام جيش (إسرائيل) كله ، وجعلهم يدركون أنهم لا يمكن أن يصبحوا أبدًا جيشًا لا يقهر ..

لأنه على حدودهم يوجد أسُود ..

أسُود (مصر) ..

* * *

سرت قشعريرة عجيبة فى جسد (قدرى) ، مع نهاية القصة ، ووجد كل ذرة فى كيانه ترتجف انفعالاً ، وهو يهتف :

ـ رائعة .. مغامرة رائعة .

ابتسم مدير المخابرات ، وتطلَّع إلى الشمس ، التى تغمر مكتبه كله ، فى ساعة الظهيرة ، وهو يقول :

ـ أراهن على أنك لم تسمع عنها أبدًا ..

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا ، وهو يهتف فى انبهار :

ـ (أدهم) لم يخبرنى بها أبدًا .

تنهَّد المدير ، وقال :

ـ ولكن كان من الضرورى أن يخبرنى أنا .

وصمت لحظة بابتسامة هادئة ، ونظرة شاردة ، وكأنما يستعيد المزيد من الذكريات ، قبل أن يقول :

ـ لقد تم نقله مباشرة إلى مستشفى المعادى العسكرى ، حيث عالج الأطباء إصاباته .. ولقد زاره السيِّد رئيس الجمهورية بنفسه ، ومنحه وسامًا ، وترقية استثنائية ، جعلته يحمل رتبة نقيب ، قبل أن يكمل الخامسة والعشرين من عمره ..

هزَّ (قدرى) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

ـ هذه الأمور تجعلنى أنفعل بشدَة ، و ...

بتر عبارته بغتة ، فضحك المدير ، قائلاً :

ـ وتشعرك بالجوع .. أليس كذلك ؟!

ابتسم فى خجل ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، فنهض المدير من خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نعود إلى منزلينا ، ونتناول طعام الغداء هناك ، فكلانا لم يذق للنوم طعمًا ، منذ صباح أمس .

نهض (قدرى) بدوره ، وهو يقول فى حماسة :

ـ ولكنها كانت سهرة ممتعة ، لم أحظ بمثلها فى حياتى قط .

ابتسم المدير ، قائلاً :

ـ عظيم .

سارا متجاورين ، واستقلا المصعد إلى الطابق الأرضى ، وبينما يغادران مبنى الأمن القومى ، توقَّف (قدرى) فجأة ، ليسأل :

ـ وماذا عن المقدَّم (راشد) ؟!

التفت إليه المدير بدهشة ، قائلاً :

ـ ماذا عنه ؟!

لوَّح (قدرى) بيده ، قائلاً :

ـ أعنى هل عاد إلى عمله ؟! أقصد أما زال حيًّا يرزق ، أم ..

شرد بصر المدير بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول :

ـ كلاً .. لم يعد إلى عمله .

ثم ابتسم ، مستطردًا بنفس الشرود :

ـ ولكنه حصل على عمل أفضل .

سأله (قدرى) فى لهفة :

ـ أين ؟!

تطلَّع إليه المدير بضع لحظات فى صمت ، ثم وضع يده على كتفه ، قائلاً :

ـ هل تعلم يا (قدرى) ؟! أنا لم أرو لك القصة بكل تفاصيلها .

هتف (قدرى) منزعجًا :

ـ حقًا ؟!

أجابه المدير :

ـ نعم يا (قدرى) .. لقد أخفيت عنك الاسم الحقيقى لذلك المقدَّم .

بُهت (قدرى) ، وهو يهتف :

ـ ولكن لماذا ؟!

شرد المدير ببصره لثوان أخرى ، وهو يقول :

ـ ربما لم يبد لى هذا مناسبًا ، فقد منعته إصابته من العودة إلى صفوف الصاعقة ، ولكن القيادة رأت ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أن خبراته أكبر من أن يعتزل أو يتقاعد ، فى تلك السن المبكرة ، لذا فقد ألحقوه بعمل آخر أكثر أهمية ، حقق فيه نجاحًا كبيرًا ، حتى بلغ أرفع مناصبه .

سأله (قدرى) بلهفة أكبر :

ـ أى عمل هذا .

ابتسم المدير ابتسامة كبيرة ، وربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ قل لى يا (قدرى) .. ألم تسأل نفسك ، لماذا تربطنى بـ (أدهم) علاقة خاصة جدًّا ..

سأله (قدرى) فى حذر :

ـ لماذا يا سيِّدى ؟!

أجابه المدير :

ـ لأننى أدين له بحياتى .

ثم مال نحوه ، وأضاف بابتسامة كبيرة :

ـ وبساقى أيضًا .

فغر (قدرى) فاه ، وهو يحدِّق فى المدير بدهشة بالغة ، ولكن هذا الأخير ربَّت على كتفه المكتنز ، ثم استقل سيارته ، وانطلق بها عائدًا إلى منزله ، وعقله ما زال يسترجع ذكريات تلك العملية ، التى لن ينساها قط ..

العملية التى أثبت فيها (أدهم صبرى) أنه رجل من نوع خاص جدًّا ..

رجل المستحيل ..

كل المستحيل .

* * *

(تمت بحمد اللَّه)

روايات مصرية للجيب

عملية عنق الزجاجة

سلسلة الأعداد الخاصة

عملية عنق الزجاجة

د. نبيل فاروق

- اقتربت ساعة الصفر ، فى أكتوبر ١٩٧٣م ، وحانت لحظة المواجهة ، التى انتظرتها الأمة العربية كلها ..
- وكجزء من خطة القتال ، كان من الضرورى إرسال فرق أسود الصاعقة ، لتحتل وتسيطر على الممرات الرئيسية ، فى قلب (سيناء) ، لمنع إمدادات وذخائر الإسرائيليين وقواتهم ، من بلوغ الخطوط الأمامية ، حتى تتم السيطرة الكاملة على أرض القتال ..
- وكان الملازم أول (أدهم صبرى) ، أحد ضباط الصاعقة ، الذين هبطوا على ممر (متلا) ..
- ولأن الأحداث لم تسر كالمتوقع ، وجد (أدهم) نفسه فجأة ، رجل الصاعقة الوحيد ، المتبقى على قيد الحياة ، والذى ينبغى له أن يوقف الإمدادات الإسرائيلية كلها ..
- فما الذى يمكن أن يفعله رجل واحد ، فى مواجهة جيش كامل ؟
- هذا هو السؤال ..

الثمن فى مصر

ومايعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع